المجموعة الفائزة بجائزة صالون نجيب الثقافي
الدورة الثانية ٢٠١٦

عبدالمؤمن أحمد عبدالعال

مجموعة قصصية

قفص وعدة أبواب للدخول

obeikan.com

الكتـــــــاب: قفص وعدة أبواب للدخول
المـــؤلـــــف: عبدالمؤمن أحمد عبدالعال
تصميم الغـــلاف: مروة فتحي
المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع
رقـــم الإيـــداع: 23331 / 2016
الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 128 - 1
الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة
هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

عبدالمؤمن أحمد عبدالعال

مجموعة قصصية

قفص وعدة أبواب للدخول

obeikan.com

obeikan.com

تقرير المجموعة القصصية

سيادة الأستاذ الدكتور الأديب القدير/ محمد نجيب عبدالله

تحية طيبة لشخصكم الكريم وبعد

فقد شرفني الإسهام معكم في تحكيم هذه المسابقة ضمن نشاطكم الأدبي والثقافي المتميز الذي أحترمه وأقدر مبدعيه. ودليل ذلك أنني سعدت بتحكيم هذه المسابقة، رغم ما أصاب عيني من تعب قبلها، ولكني لم أعتذر عن التحكيم احترامًا لوعدي معكم. ومرفق النتيجة ما عدا قصة تشابكت حروفها، وتعذّر وصول نسخة أخرى منها.

وأهنئ الفائزين والمتسابقين جميعًا لأنهم قدّموا إبداعهم بحب وصدق. بعض القصص نجحت في إسقاط الرمز الفني على موضوعاتها وفنها السردي.

وقد عالجت القصص كثيرًا من القضايا الحيوية التي يُجابهها المجتمع سياسيًا واقتصاديًا وغير ذلك، وأبانت عن الفكر الرفيع والفلسفة العميقة في بعضها التميز.

كما اتضح أن غالبية المتسابقين قدموا إبداعهم استمتاعًا بالفن، وغلبت

obeikan.com

الثقافة الطبية على بعضهم، فميزت انتاجهم الفني. واهتم البعض ببعض اللغة المتقعرة غير الشائعة الآن، واهتم البعض الآخر بالفكرة على حساب البناء الدرامي بمعاييره الفنية في القصة القصيرة فنًّا لاقطًا للنزعة الإنسانية واللحظة الجمالية في أدق صورها وأكثرها تركيزًا. وقدم بعضهم صورًا عامية راقية، وأخرى ركيكة.

والعمل الفني الأصيل الجميل المعبر المؤثر لا يؤدي رسالته للمتلقي إلا بتضافر الفكر مع الفن واللغة السليمة كما بدا في بعض القصص الممتازة. وأقترح انتخاب قصة ممتازة من عشر مجموعات في هذه المسابقة، وتقديمها في كتاب لمجموع هذه القصص المتميزة، كل قصة باسم مبدعها لتسليط الضوء على هؤلاء المبدعين الذين تجردوا بضمير ونزاهة ووفاء لقيم الفن الرفيع.

تمنياتي بالتوفيق والنجاح المستمر لأنشطة صالونكم المتميز، مع كل الحب والاحترام والتقدير لشخصكم النبيل.

أ.د. عوض الغباري

أستاذ الأدب العربي

كلية الآداب – جامعة القاهرة

obeikan.com

تعريف بالأستاذ الدكتور عوض الغباري – رئيس لجنة تحكيم المجموعات القصصية

-أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب – جماعة القاهرة

-أشرف على العشرات من رسائل الماجستير والدكتوراة في مجال تخصصه

-له العديد من المؤلفات منها (ظاهرة التأليف الموسوعي في العصر المملوكي في مصر – دراسات في أدب مصر الإسلامية – كتاب منهج البحث عند المصريين– مصر في الرحلة النابلسية بعد التعديل الأخير – الشيخ محمد عبده – بنت الشاطئ – كتاب التحدث بنعمة الله – مقدمة ديوان ابن سناء الملك – نقد الشعر في مصر الإسلامية – ..... وغيرهم)

obeikan.com

obeikan.com

قفص وعدة أبواب للدخول

سوق الجمعة هذا اليوم غير كل الأسواق. اشترى أشياء تافهة أوصته بها زوجته، وفى نهاية الرحلة اهتدى إلى محل العصافير الشهير على أطراف السوق. دار مضطربا حول الأقفاص التى تعتقل ألواناً مختلفة من الطيور المسكينة. شعور صاعد من أعماقه يلونه الاحتجاج، وغيمات رمادية تكأكأت فى الأفق القريب، طالما أحب الحرية ونادى بها منذ أيام الجامعة.

استعرض ألوانها المتوهجة حائراً، كل الألوان مبهجة للآخرين، تشد اهتمام رواد المحل المزدحم عن آخره.

اقترب منه أحد صبية المحل عارضا عليه مساعدته. استفاق من شروده على صوته الأخنف وابتسامته الصفراء، انتبه لقبعته البيضاء وفانلته البيضاء الغاصة بالطيور. كنخاس محترف وقف أمامه القصير المكير يعدد أنواعها وأعمارها. تابع طوافه، متنقلا إلى داخل المحل، وتابع القصير شروحاته. الرفوف مليئة عن بكرة أبيها. ألوان وأشكال، رفرفات وزقزقات تغطى على ضجيج أبوق السيارات بالخارج، ببغاوات ذوات أعراف وتيجان، ومناقير مقوسة ومستوية. أقفاص بتصاميم شتى قد احترف الصانع فى أن يترك

obeikan.com

بها لمسة فنية!!

تغريد العصافير يبدو له كتاجر ماهر يدلل على بضاعته. لم يعد الأمر يطربه مثل الآخرين. لن يستطيع أن يعود بدون القفص مليئاً. ستسلقه بلسانها. سيقف أمامها منكمشا منتوف الريش، يرمقها بنظرات غائمة حزينة. ستنتفش وتتمدد وتفرد مروحة ذيلها تحجب عنه النور الساطع، وتفتش له فى الدفاتر القديمة، وتخرج ما يكدر صفوه.

لمحه فى طرف المحل بقفصه الصغير المزخرف وشحوبه البادى، وحيدا مثله يستسلم للنعاس والكسل، متسخ الريش، ناحل القوام.

الظلال المتعطشة إلى الأسر والاستحواذ تبتعد عنه متقززة. وحده الذى أثار شهيته وانتباهه. عرف من البائع أنه ذكر فرق لحاله. البقعة الزرقاء فوق منقاره هى الدليل الوحيد على ذكوريته المهيضة. أخبره البائع وهو ينقده ثمنه أنه يغرد بسبعة أصوات مختلفة. قال أشياء كثيرة عن موطنه وعائلته وألوانه. أما هو فلم يلفت نظره سوى قفصه البديع الصنع وزخرفاته البديعة التشكيل.

فاجأها به فى عيد زواجهما العشرين. فرحت به من تعشق الأغلال. رتبت له العش وفرشته بنشارة الخشب، ونظفت المساقى وملأتها بالمياه. بذرت القفص بحبوب صفراء فاقعة، وضعته بجوار حوض الأسماك، ووقفت

ترصد تماوج الألوان وتداخلها الساحر.

فى اليوم التالى اصطحبته إلى غرفة نومها الوردية. ولما زهقت منه ويئست من تغريده؛ دفعت به إلى الركن المهمل فى الشرفة.

تصفح ألبوم الصور القديم، استوقفته إحداها بخلفيتها السوداء وشخوصها الباهتة، وقف يلتقط أنفاسه ويرمم ذاكرته، راح يتأملها ويكمل التفاصيل الناقصة، طافت بذاكرته أيام الجامعة بألوانها السماوية، شاب يافع ينحشر فى قميص كاروهات وبنطلون شارل ستون، يقود المظاهرات ويؤججها بخطبه الملتهبة، يحرك الدماء الجامدة فى العروق. فى عامه الأول انضم إلى أسرة الحرية. حملوه فوق الأعناق وطافوا به الشوارع الملتهبة صائحين "عبدو بيه يا عبدو بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه"، وفى عامه الثالث بالجامعة كان يشدو وسط الجموع الحاشدة المطعونة فى كرامتها بقصيدة "لا تصالح".

تعثر بها بعد انفجار من انفجاراته المتواترة. كان كالبركان يخمد فقط كى يلتقط أنفاسه، ويعاود الانفجار من جديد، وكانت كالماسة يزيدها وهج الحياة بريقا وألقا. اعترضت حممه المتدفقة بطبقة من جليد الأنثى، توقف يستطلع كتلتها الصلبة الباردة، استدرجته ببرودتها ونعومتها الأثرة إلى واديها الخصب الرحيب، كتم حرارته وجرع أول كوب ليمون بارد مع

أجمل فتيات الجامعة قاطبة.

أعلنت أمامه بجرأة نادرة؛ أنها معجبة به وبأفكاره النيرة، غبطته لأنه محط أنظار الجميع بحماسه وعنفوانه، وتاهت بألوانه الزاهية.

نبهها وهو يتخلص من عناقها إلى الفروق الطبقية التى تطل برأسها وتقف حائلاً بينهما؛ ولم تزل بالهتاف والثورات. وضعت يدها فوق فمه كى لا يكمل. قالت له أن أباها رجل ثورى يؤمن بالتغيير، وعدته بأن أفكارهما سوف تتلاقح وتنتج خلقا جديدا.

مرت الأيام على العصفور وهو يزداد نحولاً وصمتاً. لا يقرب القرطم ودشيشة الذرة. توقف تماما عن القفز والتغريد. أشار عليه أحد الأصدقاء -المغرم بجنس النساء- بتزويجه. لم يكذب خبر وطار إلى نفس محل العصافير. اختار له أنثى ثلجية اللون، ربما تقاوم حرارته الزائدة عن الحد. استقبلها أول الأمر باهتمام وفضول، تحول سريعا إلى سعادة غامرة. راح يتقافز فى القفص ويملأ الدنيا تغريداً وتهليلاً. أكل كما لم يأكل من قبل. لم يأنف شيئا كعادته، وبدا مقبلا على الحياة. جرع كل ماء المساقى، وكانت ليلة حافلة.

عادت الحياة تدب في جسده الهزيل وتلونه بألوانها. استعاد ريشه المفقود وزهت ألوانه. بانت عليه علائم القوة والعافية. فى كل المرات يضع لهما

الطعام والماء فى المساقى ويقف وحيدا، يكتم أنفاسه، يطالعهما من ركن الشرفة، يقترب بمنقاره حتى يتماس مع منقارها، يتقاطعان، يزقزقان، يتهارشان، تمتزج ألوانهما، يتزاحمان ويتدافعان فى حنان بالغ، وأخيرا تستكين ناشرة جناحيها أسفل ذكرها الذى قبض عنقها بمنقاره.

أصرت على الذهاب إلى الفيوم لقضاء شهر العسل. ساقت السيارة بنفسها. طلب منها أن يتعلم كى يريحها من تعب القيادة ومشاقها. ابتسمت ولم ترد. أقاما فى الأوبرج الشهير. جلسا ملتصقين يحدقان في زرقة البحيرة. يطيران أحلامهما مع النوراس عند قوس الأفق. شرحت له الفرق بين البطة الكيشة والشرشر وهى تضغط الزناد، بينما اكتفى هو بجمع ضحاياها والدموع تخنقه!

أغرقته بالحكايات المطرزة عن مستقبله الزاهر، والأطفال التى سينجبونها. شرحت له كيف ستساعده بنفوذ أبيها وأمواله على القفز فوق الصعاب. عاش أياما جميلة بألوان هذا الريش.

عادت السحابات الداكنة تطوقه من شتى الاتجاهات، وعاد يدمن الوقوف صامتا بزاوية الشرفة، يرمق سعادتهما ويتمنى لو أنها تستمر. فى غدواته ورواحاته يتلصص عليهما. لقد راهن فى قرارة نفسه على النهاية.

لاحظ فى الأيام الأخيرة جفوة طفت فجأة بينهما. علل الأمر بالملل. لما لا

وبضعة سنتيمترات تحجزهما سويا طيلة الوقت. فكر فى اقتناء قفص آخر أكثر اتساعا. بل أحضره بالفعل وفصلهما بعض الوقت، فى إجازة زوجية إجبارية.

الرمادية الثلجية لم يتغير شيئا فى حياتها، تأكل كما هى بنهم، تغرق نفسها بالماء وتنفض ريشها فى سعادة ونزق. رويدا رويدا يبدو عليها الاقتناع بهذا القفص المتسع ورفضها العودة من جديد. أما هو فاعتراه الذبول وعلق الحزن بعينيه الخرزيتين، توقف عن التغريد، فقد شهيته شيئا فشيئا، بل عزف تماما عن الطعام. ظل يرمقها بعيون كسيرة ذليلة وهى تداعب عصفورها الجديد؛ مبتهجة بألوانه الرائعة وعرفه التاجى المقوس.

فعلت خيرا سيدة الألوان والمنزل عندما حملت القفص الذى يجمعها مع غريمه بعيدا. ربما نسي مع الوقت ما كان من أنثاه الثلجية.

سألها من جديد، لماذا ترفض أن يتعلم القيادة؟ لماذا تنعته بالتهور؟ لماذ ترفض أن تزوره أمه الريفية؟ صرخ فى وجهها للمرة الأولى ونعتها بالمتسلطة. وخزته بكلمات كالحراب؛ أشارت إلى الفروق التى بينهما، وعن عائلته الفقيرة، وعن أولاده التى كبرت بهم فى غير الأوان.

فكر أن يرحل ويترك لها جنتها. درس الأمر جيدا. وازن بين كفتيه غير المستويتين.. أولاده.. بيته.. مملكته التى لا يحكم فيها.. كيف يترك كل

obeikan.com

هذا ويبدأ من اللاشئ؟

وفى صباح لمساء عاصف مع ألوانها وألوان أسرتها الكريمة التى لا تنضب، فرك النوم من جفونه وقد عزم أن يخلصه من عذاباته وصمته وشحوبه.

تقدم بجرأة من الشرفة، وخزت أنوار الصباح عينيه الرمداوين، اقترب منه وئيدا،

شعر به، قفز من عشه المزرى يستطلع، وقف متأرجحا فوق السلك المعدنى يهز ذيله، لكأنه قد حدس مثله بأن شيئاً خطيراً فى حياته سيحدث هذه الصبيحة.

أوسد حقيبة العمل جانبا. اعتلى الكرسى الصغير بحذر. وصل إلى القفص العالق فى السيخ المعقوف بسقف الشرفة. تلاقت أعينهما للمرة الأولى. لمح فيهما دمعة مترقرقة. فتح الباب الموصد عن آخره. لن يخشى من لسانها. سينعم باللحظة التى يتوق إليها..

سدد النظر إليه بعيونه الخرزية، وكأنه لا يصدق نفسه. راح يرسل نحوه نظرات غريبة لا يلمح فيها الحماس. يضرب الهواء بأجنحة ضعيفة. يتعثر فى البداية. يقع على الأسطح المجاورة. ينهض ويتعثر.. ينهض ويتعثر.

يقفز قلبه مضطرباً. يتنفس الصعداء وهو يراه أخيرا تبتلعه فضاءات لا

obeikan.com

تحوى سحبا رمادية، وتتلاشى ألوانه فى أشعة الشمس المزهرة.

يعود من العمل سعيدا، مدججاً بهذا الانتصار الساحق عليها. يملأ رئتيه بهواء نظيف رطب. لا يهتم بالنظر إلى تلك الثلجية العابثة وما تحدثه من ضجيج. يشعر بالنجاح لأول مرة. لقد فعل ما يجب أن يفعله منذ البداية.

يلمح شيش الشرفة مواربا. يتذكر أنه لم يغلق باب القفص جيدا. تعلو ضربات قلبه. يسكسك كفرخ صغير. ستعود بعد قليل وترتاب فى الأمر. ستغضن جبهتها وتنكر عليه هذا الفعل المشين. يلج الشرفة مبهور الأنفاس. يرغب فى مداراة آثار فعلته. فرجة صغيرة بين الأسلاك كفيلة بتفسير الأمر وتبرئته.

يركن حقيبته ويتقدم من الركن المهمل. يعتلى الكرسى الصغير. يمد يده نحو باب القفص الذى يفتح إلى الداخل!!

يشاهده فى زاوية العش منكمشاً بألوانه الباهتة وريشه المتسخ. تتلاقى أعينهما، يلمح في عيونه الخرزية نفس الدمعة القديمة التى لا تفيض ولا تغيض.

أبو شنب

بالرغم أننى من عائلة فى صعيد مصر تفتخر بالشوارب الكبيرة، إلا أننى نشأت أكره كل الشوارب. الذى قتل عمى فى حادثة ثأر قديم رجل ذو شارب غجرى، عريف الكتاب الذى كان يربطنى بالفلقة وينهال على مؤخرتى بالعصا؛ كان صاحب شارب مبروم، زوج خالتى الذى كان يطردنى عندما تبسط زوجته الطعام له شارب كشارب هتلر.

خلاف أبى الذى يعمل شرطيا وله شارب يفتخر به أمام الرائح والغادى، ومضرب الأمثال عند عجائز قريتنا. شاربه من النوع الذى يقف عليه الصقر وجميع طيور بلدتنا.

ولأنه قد شعر بالثروة التى يمتلكها أسفل أنفه الأفطس، جعل يعتنى به عناية خاصة، ويستحوذ على جل وقته واهتمامه.

ومع أن جدتى كانت تغتاظ وتناكفه وتردد على مسمع منه "لو الرجولة بالشنب لكان الصرصور سيد الرجال" أو تقول تارة أخرى "كل شنب وله مقص". إلا أنه كان يتجاهلها وينعتها بالعجوز الخرف.

كل جمعة وقت العصارى؛ يدق الحلاق الأعرج بابنا دقات منغمة نعرفها

obeikan.com

جيدا وهو يصيح "دستور".

يقرفص أبى أمامه على كرسى العجين مستسلما لأصابعه المدربة، وهو الذى لا يعرف سوى إبداء الأوامر والزعيق، يعود برأسه إلى الوراء وعروق رقبته المتصلبة توشك على الانفصال، يأخذ فى جلسته زوايا يحددها له الرجل الربعة، يلتف حوله الحلاق البدين بعرجته، يقفز حوله كجرذ كبير مزرور العينين، يهتز وهو ينزع بخيط رفيع -مشدود بين فمه وأصابعه- شعيراته المتنافرة، يميل أكثر على خد أبى ويبتعد مرات عديدة وكأنه يُقبله فى خده، يهذب بمقص صغير مقصف الأطراف الشعيرات الهائشة والمحروقة من الشمس، يرجل أطرافه بمشط ويرفعه كقوس طويل بجانب شدقيه، يفتح حقيبته الجلدية المهترئة، فيفك أسر رائحة نفاذة، يخرج حجر الشبة البلورى ويمرره على خد أبى الذى يتأوه من الحرقان، يفك غطاء علبة صغيرة بها مادة رخوة لتثبيته وللمحافظة على رونقه وإعطائه شكلاً مهيباً، وفى النهاية يرشه بالإسبراى، بينما يلتقط أبى أنفاسه وهو يتأمله بامتنان وزهو فى شظية المرآة.

كان شارب أبى سر قوته فى عمله، يخافه العامة واللصوص، تستعين به العائلات فى فض المشاجرات والصلح بين خصومات الثأر لما له من هيبة ووقار.

بدأت مشكلتى مع الشارب مبكرا. تقريبا فى سن العاشرة. عندما لاح خط أسود فوق فمى. بدأ ببعض الزغب الأصفر بعد مولدى بشهور كما تقول أختى، وعلى النقيض من والدى؛ كنت محط سخرية الجميع بمنزلنا!

فلو حدث وسقط منى كوب من الزجاج وتناثرت شظاياه، انتفخت غيظا أختي الكبيرة التى تحلم بعريس له شارب دوجلاس؛ وتبكتنى بصوت مسموع "أمال لو لم تكن رجلاً وخط لك شنب كنت تعمل إيه"، ولو حدث أن قرصنى الجوع وتسللت مبكرا إلى خوان الطعام واقتطعت منه لقيمة؛ لوافنى صوت أمى زاعقاً ومتوعداً "فيه راجل بشنب يعمل ما تعمله، انتظر أبوك".

يلفظنى بابنا العتيق الذى له أوكره على هيئة شارب إلى الخلاء. أسير بمحاذاة الترعة التى نبتت لها شوارب من الحلفاء!

أتفادى الأصدقاء والأعداء، ولو حدث وقابلنى أحد المارة، أدير وجهى إلى الناحية الأخرى وأغطيه بكفى. أستمع إلى أزيز ذوائب الأشجار وصفير الرياح؛ فيخيل إلىّ أنها تصرخ ساخرة "يا أبو شنب، يا أبو شنب!"

وعندما يقرصنى الجوع أتسلق شجرة توت عم حمزة، أقطف من ثمارها الغضة، وأدفع بها إلى فمى؛ أُسكت صراخ بطنى.

وربما تشجعت ولاعبت صبية فى مثل سنى، لكنهم بالطبع بغير شوارب نامية. نلعب الترنجيلة، وعسكر وحرامية، ونطارد الأسماك الصغيرة

بالحصباء، وعندما تدب ضغينة بينى وبين أحدهم-لنصر كاسح لى مثلاً- ليس من الصعب عليه الانتقام منى، يكفى أن يذكرنى بشاربي الذى خط!

وعند الأصيل يعود أبى منتفخا يخطر بشاربه على الطريق الرئيسي، يحييه الرائح والغادى، الواقف والقاعد، الراكب والراجل، وهو يرد عليهم باعتداد وزهو. يلمحنى من وسط الصبية بعينين مزرورتين، تتغير ملامح وجهه سريعا وتحتقن. أفشل فى محاولة الانكفاء على بطنى والاختباء أسفل جرف الترعة الطينى. يسوقنى أمامه كجرو صغير وهو يزعق خلفى:

-روح يا أبو شنب .. أحلق شنبى لو نفعت.

أرفض تناول الطعام متذمرا، يهملنى أبواى -متفقان سويا علىّ- كعقاب صارم لى. بينما تسبح شوارب أبى بثقة فوق سطح الحساء، يتناهى إلى أذني -وأنا على عتبة الدار- صوته المتحشرج وهو يكرع الماعون ويتجشأ بعضه.

للشارب فى أسرتى قدسية خاصة. يعتقدون أننى دائم امتهانها. ممنوع لمن يحمل شاربا أى خطأ ولو يسير، ألا يلعب مع الصغار الذين هم بلا شوارب بالطبع. الضحك أو المزاح أيضا ممنوع وبشدة. لم أر أبى من قبل متلبساً بضحكة أو مزحة تهذب من نقر الجدرى بوجهه اللحيم، بل كان يرفض مشاهدة التلفاز، ويصيح عندما يشاهد بمحض الصدفة بعض

obeikan.com

الفقرات الفكاهية:

-والله مسخرة .. ويقولوا فن رفيع وغليظ .. رجل يلبس ملابس مشجرة ويقف يتلبن مثل النسوان وكمان حليق الشنب. عشنا وشفنا.

ومع ذلك كان يثنى علي التلفزيون وهو يتابع فى برنامج عالم الحيوان طائر الشوارب الذى يعيش على ساحل الباسيفيك وهو طائر رمادى له شارب أبيض طويل، أو عندما يسترق السمع فى برنامج جولة الكاميرا أخبار النساء فى قرى رومانيا وكيف أن صاحبات الشوارب منهن مرغوبات أكثر لصحة الجسم والخصوبة، وبالطبع كانت فيلم شنب النجعاوى هو الفيلم المفضل لأبى ويكثر من مشاهدته..

كان أبى يحتفظ فى دولابه الصغير بمجلة تجمع بها صور لأكبر الرجال شوارب. يتحدث باستفاضة مع أمي بغيرة عن الرجل التركى صاحب أطول شارب فى العالم، وكيف ربح مائتي ألف دولار فى ضربة واحدة.

ترقد أمامه على الفراش بجلبابها الستان الأحمر وهى تتملقه بغنج بأنه الأكثر رجولة والأطول شارب لاشك، ويظنا أبواى خطأ نوم جميع من فى الدار.

أيقنت أن مشلكتى ليست مع أبى وأخوتي بل مع هذا الشارب اللعين؛ الذى خطنى مبكرا وقبل الأوان ونفث سحره فى جميع من يسكنون البيت. كم من

obeikan.com

مرة وقفت أحدق فى المرآة بحسرة. ينتابنى شعور المجرم عندما يضبط متلبسا بجريمته النكراء.

بدأت أنفر من صحبة أصدقائى وأتحاشاهم حتى أجنب نفسى سخرياتهم وتعليقاتهم. أنزوى فى أغلب الأوقات بحجرتى خجلاً مهزوماً.

فى يوم ساكن بلا ضجيج، وقفت أمى فى المطبخ طويلاً، شاهدتها من موضع تلصص تعقد سكر وليمون فى (كازرولة) صغيرة، بعدما تخثر الخليط وتماسك قوامه، اختفت به فى غرفتها ورائحة السكر المحروق تملأ البيت! رأيتها وهى تمسك قطعة الحلوة وتكورها فى قبضتها وتشد بها شعيرات ذراعيها الناصعين البياض وأسفل إبطيها. غافلتها وأخذت من أسفل السرير قطعة صغيرة. جلست فى حجرتى أدعك بها شاربى وأنا أتوجع. ولجت أختي علىّ الغرفة ووقفت تتطلع إلىّ فى دهشة. أنزلتها إلى فمى ورحت ألوكها أمامها حتى لا تكتشف أمري وتشجع عائلتى على التندر بى.

اهتديت أخيرا إلى حل جهنمى لتلك المشكلة العويصة. قلبت فى صوان أبى حتى عثرت عليها. أدرت ذراعها الصدئة بصعوبة حتى انفكت طرفاها. حشرت الشفرة وأحكمت ربطها. مررتها فوق فمى ذهاباً وإياباً. اختفى الخط الأسود تماما. جرحت أرنبة أنفى وتدفقت دماء غزيرة. لم أنثن

وكبست الجرح بخرقة قديمة. لم أفكر فى إعادتها إلى مخبأها.

فى اليوم التالى شكى أبى من ضياع ماكينة حلاقته، وحملقت أختى بعفرتة فى شاربى وهى مندهشة، ثم أطلقت ضحكة عالية. اضطررت أن أعود مرة أخرى وأستره براحتى حتى لا يفضح الجرح أمرى.

أفاجأ بأن ما فعلته جعله ينبت بتوحش وكأنه يعاندنى، ويقف فى صفهم ساخرا. الشفرات تتكدس أسفل وسادتى، وفى جيوبى وداخل الدولاب بين طيات ملابسى. كلما بزغت مقدماته اجتززتها سريعا قبل أن تتفتح فى وجهى. أصابتنى التهابات شديدة؛ أضرت ببشرتى. الصبية اندهشوا أول الأمر لغياب شاربي وحضوره بين اليوم والآخر، ثم تناسوا الأمر سريعا.

الآن نحن نلعب حول شجرة التوت العجوز الترنجيلة والسبع بلاطات، أسمع وقع حذائه الميرى الواثق فوق المدق الترابى وحفيف شاربه الذى يغطى على حفيف الأشجار، فيرتفع بدوره صوت دقات قلبى الراجف، أنحدر أسفل جرف الترعة منكفئا على بطنى حتى لا يراني، أشعر بالبول الساخن يضغط مثانتى، بينما صوته الأجش يوافينى ساخطا "روّح يا أبو شنب، والله ما أنت نافع".

أعود منكسراً ذليلاً إلى ظلام غرفتى وخشونة فراشى، تستلمنى العفاريت التى تسكن عروق السقف وطلاء الجدران المتآكل. ألمح الفئران تتقدمها

شوارب كبيرة وهى تمرح بين المقتنيات، خيوط العنكبوت شوارب أخرى للجدران..

أتطلع إلى الماكينة الصدئة والشفرات المليئة بأوساخ الشعر، أتحسسه وقد فتكت به الالتهابات وحَب الشباب، أدفن رأسى فى وسادتى يخنقنى البكاء، أنام وأنا أحلم بيوم يختفى فيه هذا الشارب اللعين...

obeikan.com

الغريب

تستلقى بجسدك المكدود فوق الكنبة، تنفض عنه شقاء يوم طويل حافل، تدير أحلامك برأسك، تقلبها يمينا ويسارا. تحقق منها ما تشاء، تتخلص أولا من الفئران وتشترى ثياباً جديدة، ترجئ الزواج إلى حصة أخرى من حلم جديد.

الأمطار فى الخارج تنقر نافذتك، الرعد والبرق يتوعداك، جو من الرهبة يثار فى نفسك. تسمع صوت انفتاح الشيش وانغلاقه. تتقهقر من الخوف وتنكمش مكانك. حتما اللصوص استغلوا هذا الجو الشتوى وتسللوا إلى منزلك النائى. تتوقف برهة كى تستجمع قواك المنحلة. ركبتاك اسطوانتان معبئتان بالرمال والحصا. تنطفئ الأنوار فجأة ويلفك الشرود والخوف.

تذهب إلى المطبخ مرتاعا. تفتش فى الأدراج عن شمعة وأعواد الثقاب. تخبئ فى حزامك سكين طويلة كى تستخدمها عند الحاجة. تتقدم إلى الصالة وتحاذر من تيارات الهواء.

تجلس على الكرسى أمامه ساهما. يهبط بالأباجورة ويصوب رشاشات الضوء إلى عينيك المغمضتين. يسألك بخشونة عن هذا الخط المنمق.

obeikan.com

لا تستطيع أن تنكر. تخبره أنها مجرد تحية فوق غلاف لكتاب. تستجوبك تقاطيع وجهه المجدور "هل تعرف من يكون هذا الشخص؟ وهل تعرف مؤلف هذا الكتاب؟" تقسم له –وأنت على يقين بأنه لن يأبه بقسمك– أنك قابلته فى إفطار رمضانى بأحد المساجد.. كنت تصلى المغرب بجواره. وبعد فراغك تجمع المصلون حول صف طويل من الأطباق. شدتك طزاجة الأبخرة وشدك وأجلسك بمحاذاته وقال "بسم الله". نظرت إلى وجهه الباسم كطفل، وإلى لحيته المضيئة وجلبابه الأبيض وقبلت، وعيناك تزوغان نحو باب الخروج. تكررت صلواتك حتى توفر مصروفك، وتكررت الابتسامات والدعوات. إنك لا تعرف حتى اسمه بالكامل.. لا تقسم.. لو صدقك ما انهالت الأكف على وجهك وقفاك. ماذا يفيد أن تلعن بطنك التى قادتك إلى التهلكة.

تكور فى جلبابك الحائل، وضع خلفك وسادة الليف، نقب فى حزمة الأوراق الصفراء عن فرصة عمل وحيدة لا تحنى فيها ظهرك، قم بفرد ورقة جرنال صارت لا تذكر أخبارا عن الوظائف الخالية وتكتفى بأخبار الموتى، ورص فوقها أقراص الطعمية وشرائح الباذنجان، تفاجأ به قبالتك، وقد انشقت الأرض عنه، لا يبدو عليه أنه لص ولا يتشح بخجل الضيف، ولا تتذكر أنك رأيته من قبل.

تشير له دون أن تنطق. يرد إشارتك بفم لم يفتر. يضايقك بكبريائه. كيف فتح الباب واخترق عزلتك؟ ينتظرك حتى تبدأ ويتسلل بيده العجفاء -الذى غير الجير والأسمنت لونها- إلى طعامك.. يلوك معك بتؤدة فحلاً من بصل، وقرصاً من طعمية، ويتجشأ فوق جلبابك.

طرق متواصل يفوق طرقات أمعائك الجائعة.. تنهض فزعاً، تفرك النوم من عينيك.. اللهم اجعله خير.. الساعة الثالثة صباحا.. يخترقون الشقة كعاصفة.. طابور من الوجوه المجدورة المتجهمة. يتقدم منك كبيرهم ويقول بابتسامة صفراء ولهجة باردة:

-ستأتي معنا.. الليلة أنت ضيفنا.

يجرونك خلف الكبير لا ترتدى سوى سروالك الشفاف الذى ترتسم فيه عورتك.. تتفتح شرفات الجيران ويبرز لسانها الطويل الثرثار.. وأنت الذى تكفى خيرك شرك ولا تريد أن تخالط أحدا.

جسده الضخم يردعك من التفكير في الدخول معه في معركة خاسرة، أو ملاسنة خفيفة. تسلقك السقالة جيئة وذهابا طيلة النهار بقصعة المونة هد قواك. وربما كان واحدا منهم.

تذهب إلى المطبخ وتعود ببراد الشاي. تميل (بزبوز) البراد وتدلق خيطاً أرجواني من الشاي، يتصاعد منه بخار يصنع رغوة شهية.

obeikan.com

يخطف منك كوب الشاي في تبجح. تندهش لأنك لم تحضر معك سوى واحدا، بل أن مطبخك كله لا يحوى سوى هذا الكوب اليتيم. لم تعتد أن تستدعى ضيوفاً. وتكتفي بلقاءات المقهى والتسكع على نواصي الحارات. لا بأس أن يشاركك شرابك كما شاركك طعامك، المهم أن يرحل هذا الطفيلي على الفور بعدما امتلأ كجولق.

تختلج شفتاه، يود لو يسوق معك حواراً حاراً، تود ولو تسأله عن بعض الأشياء. هل يعرفك من قبل؟ وهل هو من بلدتك القديمة؟ وهل يبحث مثلك عن عمل يناسب مؤهله؟

تتحسس مديتك الصغيرة التى توقفها على تقليم أظافرك. تتريث حتى يشيح بوجهه وتباغته بطعنه قاتلة. سيعتبرون الحادث دفاعاً شرعياً عن النفس. يفعل مثلك ويبرز واحدة مماثلة ليواصل ردعك.

النوم يباغتك وهذا الثقيل لا يغادر، تتململ فى مكانك، تغير من وضعية جلستك، يفعل مثلك؛ يحافظ لنفسه على درجة من التهيؤ والاستعداد.

المواجهة المباشرة معه لن تجدي نفعا. يبدو الانتصار عليه عصيا. تعبث في جيبك المخروم، تتذكر لفافة سم الفئران التي أحضرتها معك. الفئران قد أكلت ملابسك الداخلية، ومنشفة الحمام، وجلبابك الوحيد الذى ترتديه صيفا وشتاءً، هكذا توسلت إلى الصيدلى العجوز حتى يمنحنك إياها.

الفئران ليست بهذا الثقل والرذالة. اعتادت أن تسرق وتختبئ. وهذا المقتحم يتمدد أمامك بكل بجاحة، ودون سابق استئذان. يزكم أنفك برائحة قدميه المتعفنتين !!

تنتبه إلى الكنبة التي يجلس عليها. من أين أتى بها؟ وبحشيتها التى تدلى من بطنها المبقور نفس القصاصات الملونة؟ كيف يقرر العيش معك، وينقل مقتنياته دون أذن مسبق منك؟ إلى هذا الحد يستفهك ويهمل شأنك.

"قاومه لا تجبن" عبارة قالها أحد زملائك خلف الجدران الرطبة والسجان يعتليك كحمار.. قاوم عبارة قالها رفيقك.. قبل أن تُجرد من بعض ملابسك.. وقالها بعد أن جردت من سروالك وانكشفت مؤخرتك.. ويداك المرتعشتان لا تعرفان سوى أن تمسح دمعك ومخاطك.. قاوم عبارة لم تستطع أن تقولها له فى محنته.. كما لم تستطع أن تساعده فى تلك اللحظة والسجان يكتم آخر أنفاسه!!

لن تستسلم لأحلامه وستدافع عن بيتك..عرضك.. ستقاوم وتستعيد ما ضاع منك. ستعرض عليه كوبا آخر من الشاي. وتغيب فى المطبخ وتعود ومعك الحل!!

اشرب معه حتى لا يقف على مخططك الجهنمى. بين الفينة والأخرى تبادل معه إيماءات الترحيب، واكتم ضحكة شامتة.

تمسك رأسك وتدور بك جدران الغرفة دورات قلقة مجنونة. بركان يقذف حممه فى أحشائك. الخبيث لابد أنه قد غافلك واستبدل الأكواب. تشعر بتغلغله في شراييك. تخر كخرقة بالية فوق الحصيرة المتهالكة، تقبض يدك على لفافة سم الفئران الفارغة، تقذف وجهه الدميم بحذائك البالى، تلفظ آخر أنفاسك وفمك يطفطف بالريم، بينما يتناثر الغريب فوق رأسك شظايا ونثارات من زجاج.

obeikan.com

العجوز

تَعْبُر قنطرة الترعة الآسنة، بجِلبابها المشجَّر وشالِها الكمُّوني، تأخذها السكَّة الزراعية الطويلة، الليل قد هبط سريعًا، نَقيق ذُكور الضفادع، وصوت هسيس النَّخيل يجرح السُّكون، تؤنس وحدتها اللمبات الملوَّنة وهى تومض في الظَّلام كحبَّات الكهرمان، يركض نحوها بجلبابه وعباءته الكشمير وعوده الفارع، يلومها على تأخُّرِها وهو يمسِّد مسبحته الطويلة، ويتمتِم بتوتُّر: "يا رب استر"...

تتباطأ في سَيْرِها، ويلمح ضيقها المصطنَع، يعتذر لها، وتنبسط أساريرُه، يخبرها أنَّه ابنُه الأوَّل بعد زواجٍ دام خمسة عشر عامًا، تبتسم وهي تلمح الدار التي يجري فيها الخيل، تتوقع أجرًا بحجم الدَّار.

تختفي مع باقي النِّسوة في حجرة ضيقة ينتصب فيها سرير بأعمدة نحاسية ودولاب بضلفة واحدة، ويمكث هو بعد أن رفضت دخوله في ردهة مُجاورة يتقلب على نيران القلق، تغيب برهةً من الزمن، توارب الباب قلِقةً، وتشرئِبُّ برأسها زائغةَ النَّظرات، يهرع إليها سريعًا، ويُجيبها ملهوفًا:

. نعم يا حاجة-

. اخلع قفطانك-

تساءلَ أوَّل الأمر مندهِشًا، وهو يتبادل النَّظرات الحائرة مع أفراد عائلته:

- لماذا أخلع قفطاني؟!

- صاحت به وهي تشعر بعظيمِ مَكانتها الآمِرة:

-اخلع قفطانك، واسمع الكلام.

فخلَعَه في توتُّر، ورماه على الكنبة المُجاورة له:

. (أهه)-

لكن المولود لم يَنْزل، تخرج حائرةً، وتصيح ثانية:

-البَسّه بالمقلوب.

وظلَّت هكذا، تأمره بأن يخلعه ويرتدِيه؛ مرَّة من الأمام، ومرة من الخلف.

وفي النهاية، يَنْداح صوتُ صراخ الصَّغير بطزاجة اللقاء الأوَّل، تدوِّي صوت الأعيرة النارية، وتتعالى الزَّغاريد وتُنحَر الذَّبائح، وتخضب الأكف الجدران، وتطول رقبتها بين الحضور بضعة سنتيمترات، ورُبَّما بضعة أمتار كاملة.

تقطع الخلاص، تكوي جرح سرّة الطفل بالكحول، تلفُّ معصم الأم بخيطٍ رفيع معقودة بها سبع عقدات، تُتْحِفه بقائمةٍ من التحذيرات: ألاَّ يدخل

obeikan.com

عليها وهو عائدٌ من جنازة، أو من عند حلاَّق القرية، أو وهو يحمل لحمًا أو باذنجانًا!

يتلقَّى التعليمات بنفْسٍ راضية كتلميذ، يدفس يده فى سيالته بحماس، ويفرِّغ حافظته الجلدية في حجرها مسرورًا.

تخرج من فناء الدار محمَّلةً بالهدايا، تَمنح ربَّ الأسرة وعدًا بالعودة في الأسبوع؛ لتهزَّ المولود وتدقَّ (الهون)، وتجعلها ليلة (ولا كل الليالي) بالنَّجْع.. تطلق زغرودةً مَمْطوطة تتردَّد أصداؤها وهي تُغادِرُ الدوار الغاص بحبال اللمبات الملونة.

تَعْبُر قنطرة التّرعة عائدة، تُدندِن بأنشودة ريفيَّة قديمة، تأخذها السكَّة الزراعية الطويلة، في بيتٍ مهجور، تستبدل بِثَوبِها السُّفلي الأسودِ العلويَّ الملوَّن، وتَقْلب الشال على الوجه الداكن، (تقرش) بصلةً عفنة بين أسنانها المتهدِّمة، وتقرِّبها من عينيها، تختبر عضلاتِ وجهها المليء بالنمش، وتُجهِّزها للمهمَّة القادمة، تنعق الغربانُ فوق ذوائب الأشجار، تستقبلها إحدى الدُّور الواطئة بظلمة حالكة، تسيل أنفُها وعيناها بالدُّموع.

النِّسوة يتَّشِحْن جميعًا بالسواد كقطع من الليل الأسود، النُّواح يرتفع، يُحيِّين به كلَّ زائرة جديدة! قدومها هي ليس كغَيْرها؛ يُجابَه بالصَّمت والترقُّب، يعرفونها بالوشم أعلى صدغها الأيسَر، والحلقة الذهبيَّة العالقة في أنفها،

تتفرج حلقة النِّسوة وتحتويها، تضيق عليها، وتتبعها إلى باب الحجرة الداخليَّة، تنهرهم بنظرات زاجرة، تَحجزهم بذراعيها العجفاوين وتطلق عليهم لسانها السليط، تعرف طريقها جيدًا، تَلِجُ الغرفة بمفردها، تغيب بها دقائقَ معدودة، تشرئِبُّ برقبتها من فُرجةِ الباب، وتَهمس:

-تريد ابنتها.

يعلو (الصوات) من جديد.. كلٌّ يتمسَّك بالرغبة في وداعها الوداع الأخير، تكرِّر بحسمٍ وهى تسب وتلعن أنَّ ابنتها الكبرى فقط هى التي ستدخل، تنهرها، البكاء يقلقل الميت، وربَّما لا تستطيع أن تؤدِّي عملها بإتقان، تدس يديها في كيسَيْن من البلاستيك، تتحسَّس الأطراف المتصلِّبة، تفشل في نَزْع ملابسها، تطلب مقصًّا مسنونا، تختفي الابنةُ الكبرى وتعود بالمقص، تبدأ من الكُم الأيمن حتَّى رقبتها، تستدير نحو الأيسر، تغطي العورة بمنشفة، تضغط البطن حتى تخرج الفضلات، تغسل الرأس والجسد بالماء والكافور، تجفِّفها من البلل.

تطيِّب الكفن بالمسك الأبيض والحَنوط، تلفُّه حولها، تطلب المساعدة من ابنتها، تَجهشُ بالبكاء، وترتخي أناملها، تدفعها إلى الخلف وتقول متبَرِّمة:

. (إوعي يا خايبة)-

تَستدعي إحدى العجائز حتَّى تساعدها.

تفرغ من مهمتها وتخرج متهلِّلة، تتحدَّث عن النُّور الذي يفجُّ من وجهها والملائكة ذوو الأجنحة البيضاء التى تحيطها، تنبسط وجوه بعض أقاربها، يقترب الابن الأكبر، وقد لانَتْ ملامِحُه الباكية ويفتح حافظته الجلدية التى تكاد أطرافها ملامسة الأرض، وينقدها أجرًا لَم تتوقَّعْه.

تتَّسِع حلقة النِّساء تُفسِح لها طريق العودة، تَمضي وهي تَستشعر عِظمَ شأنها ومكانتها، يتكَأكأُ الرِّجال مندفعين لحمل النَّعش، تلتفِتُ إلى الخلف تحييها للمرة الأخيرة، تُطْلق صرخةً مدوِّية، تشيِّع النَّعش المندفع إلى الأمام، تردُّ عليها النسوة المتحمسات بصراخٍ مُماثل، بينما طرفُ ثيابها الملوَّن يَبين من أسفل!!

obeikan.com

السِمَّاوي

كان ينتدب من شرطة المركز لعمل خطير. يشتهر بيننا بزيه الميري الأصفر ذى الجيوب المتعددة. يوفر لنا أمناً ربما فى مثل قريتنا لا نحتاجه كثيرا. يهبط النجع منتفخ الأوداج، يقتصد في كلامه عن عمد، يصنع لنفسه هيبة ووقارا. نستقبله نحن عفاريت القيالة كفاتح عظيم، نقدم له الطعام والشاي الحبر لزوم الصحصحة. وقد يطلب الجوزة كى يدخن التبغ ونبات البانجو المنتشر بكثرة في أرض طرح البحر.

من كثرة اعتياد الأهالي لرؤيته صاروا لا يهابونه ولا يخشون منه غدراً. يروحون ويجيئون أمامه متأبطين بنادقهم غير المرخصة، يتداولون النباتات المخدرة (عينى عينك)، ولا مانع أن يأخذوا رأيه في (حتة) سلاح جديدة، أو الاستعانة به في تحديد سعر أخرى قديمة، وربما مال نحو غرزة صغيرة وباغت روادها وأخذ لحسة أفيون على طرف عود الكبريت وراح يستحلبها تحت لسانه، ثم يبدى لهم رأيه في مدى نقاوته من عدمه.

لا نفتأ نحن معشر الصبية نتبعه مهللين فرحين، لا يصرفنا عنه صارف سوى صوت هدير طائرة رش المبيدات، وهى تصول وتجول فوق غيطان

obeikan.com

القطن الذى يشعل الأفق بنواره.

نرى في هبوطه النجع متعة جديدة، نكسر بها رتابة حوادث الثأر والعداوات التي تحظر علينا التجوال بعد الغروب. اعتدنا سماع دوى الطلقات، واللعب بالفوارغ من المقذوفات، ومشاهدة الجثث الممدة على الأرض والغارقة فى دمائها، إلا أنه القتل الوحيد الذى يتفق عليه رجال النجع ونساؤه، كبيرهم وصغيرهم، وقل ما تجد معارضا له.

كانت بندقيته ذات الروحين لا يخيفنا دوى طلقاتها، وكنا بدورنا نجمع الطلقات الفارغة ونقارنها بعدد الكلاب الميتة والمصابة، ونحزر نجاحه من عدمه. نتباهى بتلك الانتصارات الساحقة، ونحز آذان الكلاب الصريعة ونلضمها في عقد وندور بها في وسط البلد منتشين، مهللين، دون أن نثير سخط الآخرين الذين قد اعتادوا على رؤية الضحايا والدماء!

وكان عمى فرهود جندياً عجوزاً طويل القامة، قوى البنية، أسودا غطيساً كالسودانيين، رأسه كبير كرأس الحمار وعيناه واسعتان مستديرتان، يُحتجب فمه الواسع ذو السنة الذهبية خلف شارب عظيم كالصقر، يبرمه ويثبته بـ"الكوزماتيك"، ويعتني في تهذيبه مثل سلاحه تماما.

اعتاد أن ينهرنا ونحن نتبعه كما يهش البعوض والذباب، وفى قرارة نفسه سعيد بهذا الموكب الصاخب. يتكلم بلهجة تتصنع الصرامة والسخط

والعداء، يخيفنا ويصرفنا عنه:

-ارجع يا ولد أنت وهو.. السلاح شاطر..

يمسك نبره الأجش وتهديداته المتواصلة كثير من الصبية عن التقدم. أما أنا فأتبعه كظله لا ترهبني عيناه المحتقنتان، ولا حاجباه المقوسان لإخافتنا. ومع الوقت دبت بيننا صداقة من نوع خاص. أرشده إلى مكامن الكلاب الضالة والمسعورة، التي كانت بنباحها تفسد تسللنا بالمساء الموغل أو في الصباح المبكر، ونحن نجمع الرطب ونسرق قرون الفول الأخضر.

وكان عمله يلاقى تذمراً من أصحاب المزارع والبساتين، وعلى النقيض كنا نسعد سعادة بالغة عندما تثمر توجيهاتنا بقتيل أو جريح لكلب كنا نكن له عداوة سابقة. ومع مرور الوقت كان يتوطد مركزنا عنده، ويأخذ كلامنا على محمل الجد، والعبرة بالنتائج كما يقولون.

بل كان يواظب على البحث عنى عندما يهبط النجع، ولا يجدني فى ذيله، وأنا أقود خلفه قطيع الصبية المتحمسين. وجمعنا عمل دموي، كلانا كان يستقبله بقلب بارد، علمتني قريتي الضليعة في الثأر وعلمته مهنته الغريبة. لا يني يجيب وخز ضميره بكلمات يتجشأها دون اقتناع" لقمة عيش وكذلك بنمنع أذى عن طريق الناس" .

وفى صيف يشوى الوجوه مشيت بزيله أنا وسحابة من تراب، وسراب يتلظى

بطول الطريق المقفر من السابلة، يحملني الفخر كفراشة كوني الوحيد الذي ظفر بحظوته. أشعر بنفس المتعة التي يشعر بها وهو يصيب هدفه مع أننى لا أضغط على الزناد !

وتبعته هذا اليوم الصائف وأنا أضمر شرا لكلب أبو ستة، الذي يمنعني من التسلل إلى حديقة الموز بأرض طرح البحر، وانصاع ليّ الرجل الذي بدا أكثر كهولة عما قبل وكأنه قد شاخ فجأة، وأنا أقوده فخورا - كونى دليله الوحيد - عبر الطرق الملتوية والمدقات الترابية التي نسلكها إلى حديقة بحري البلد.

رشوته حتى لا يتراجع من طول المسافة ببتاوة (كنت أحشرها بين قميصي ولحم بطني) وقطعة جبن قديمة اختصرتها من إفطاري .

وزاد سروره كونى سرقت له قرون الفول الأخضر من زرعة حسنين بخ، ومضى ببندقيته مستسلما لإرشاداتي، يلوك الجبنة المدججة بالدود الذى تخندق داخلها، ينثر فمه -النشيط كرحايا- الفتات الأبيض فوق سواد شاربه المصبوغ . بينما يده الفارغة ترتفع وتحط في جيوب جاكتته الميرى الملأى بقرون الفول المسروق. أكتم ضحكة تصاحبني طيلة جرشه للطعام، كونى وجدت ذبابتين ميتتين فوق قطعة الجبن، وبالطبع ما كنت لأخبره.

وصلنا الدغل واستقبلنا كلب أبو ستة بعاصفة من النباح. بدأت المطاردة

obeikan.com

على الفور، ساعدته بكل ما أوتيت من خبرات. لاسيما وأنا أعرف جيدا مداخل ومخارج الحديقة ومكامن الكلاب. ومع أن سباط الموز مازال أخضر على أننى كنت أنظر للأمام، فعمى فرهود أحيانا ما يتغيب بالشهور، بل وقد تطول الغيبة إلى سنين كاملة .

ضيقنا عليه الخناق وحاصرناه عند غرفة طلمبة المياه المهجورة. دوت طلقات عمى فرهود تشيعها دعواتي بالنجاح. افترقنا نتعقب الصيد الثمين وأنا أشعر بسعادة الظفر. تمنيت بعض الصعوبات تطيل المطاردة وتزيدها سخونة.

دعاني عم فرهود أن أتبعه، الكلب فيما يبدو مسعور وبه من الخطورة على حياتي. تجاهلت نداءه وتبعت الكلب المصاب، أتلفت فى طريقي بعض سباط الموز غير الناضج. اهتديت أخيرا إلى بقع حمراء تلمع في سواد الطمي، تبعتها وأنا مسرور. قادتني قدماى إلى المجراية الخالية من المياه. رمقتها ممدة أسفل قنطرة صفيح تتوسط مدقا طرف الحديقة الغربي، تعوى عواءً مكتوما، طالعتنى بعيون كسيرة دامعة، لمحت الدم المتدفق من تلافيف جسمها كنافورة، جزعت وتراجعت بضعة خطوات إلى الخلف وأنا مقبوض الصدر، والشعور بالفخر يتسلل من صدري ويستحيل إلى شعور غامض مبهم.

فوجئت بصغارها أسفل القنطرة كقطع اللحم الحمراء، جفلوا وتراجعوا

obeikan.com

أول الأمر عندما رأوني، انكمشوا ككتلة لحم واحدة، جاوبوا صيحة واهنة من الأم الجريحة التي بدت وكأنها تناديهم، أحاطوها سريعا ملبين دعوتها، تمسحوا فيها، تشمموا صدرها الناهج، الذى رأيته يعلو ويهبط. مال عليها الصغار والتقموا ثديها، وراحوا يرضعون فى تلذذ وهم سابلى الجفون منومين. سالت دموعي أمام المشهد الذي لم أتوقعه أبدا. تمنيت وقتها أن يلدغني عقرب أو أن يبتلعنى ثعبان قاتل.

عيونها المنطفئة البريق تتردد بيني وبين صغارها مشحونة بالاتهام، ودمعة لا تفيض ولا تغيض تترقرق بعيونها الذابلة، وبلادة أخرى فى عيون صغارها المشرئبين والذين يجهلون معنى الموت.

انتبهت على صوت عم فرهود يناديني بصوت أجش نكر، لبيت نداءه مذهولا وقدماي لا تقدران على حملى، أوشك على التهاوى فى بئر سحيق لا قرار له. سألني عن الصيد وهو يجرش ثمار النبق ويلفظ النواة تلو الأخرى، أجبته بتثاقل وأنا أشير بعيدا إلى اللاشئ : فلنبحث في الناحية الأخرى..

صيد جديد

يتثاءب فوق دبابته الرابضة على الرمال كخنفساء . يشعر أن النشاط يتسرب من جسده رويدا رويدا . نجمة داود قد تراكم عليها الغبار . الكسل خيانة للوطن . سحابات الدخان ما زالت تلبد المكان . الطوب والإطارات المحترقة تغص بها الطرقات . ينادى زميله بكسل وفتور .

- عموئيل أعطنى منظارك " سارينا " قد تأخرت كثيراً .

تغبطه مشاهد العمارات المتهدمة والعربات التى تنبعث منها الأدخنة . الخراب فى كل مكان، يتحرك داخله الزهو .

الطريق خالٍ و " سارينا" ليست فى مرمى البصر . البرد يتسلل إلى جسده . الحب والعواطف دفء لا يقاوم !

"تبا لتلك الغانية !" يدفن قلقه فى كأس من نبيذ العم سام . يدير زر المذياع على صوت أمريكا. يتبرم، "يخفون علينا قوتنا، الهزيمة ليست فى قاموسنا، والضعف أسلوب مقزز للمناورة" .

تملأ الضحكات الساخرة فمه المعبأ برائحة الخمر .

obeikan.com

- عموئيل سمعت آخر نكتة . صاحبك يقولون عنه أنه رجل سلام .

- لا تهم الألقاب بل كم ما نجنيه من مكاسب . بالكذب نربح أكثر !

- أصبحت خبيراً بالسياسة يا ابن يعقوب . أما أنا فلا يعنينى سوى القنص . عندما كنت صغيراً اعتدت الخروج مع والدى فوق تلال الثلج الممتدة نصطاد الدببة وعجول البحر . أما هنا فلا شئ يصلح للقنص سوى هؤلاء العرب الملاعين وللأسف لا نستفيد بلحومهم . أين السمن والعسل وما وعدونا به ؟!

يكرع كأسا آخر من النبيذ . يتطلع بالمنظار . يرخى يده ويرتد بصره فى تذمر صامت . يبحث عن عمل يشغله . يعكف على تنظيف سلاحه منذ عدة أيام لم يستعمله كسله أيضاً خيانة للوطن . تملأ فمه ضحكات مبتذلة . سوف يجردونه حتماً من لقبه كأعظم قناص .

- تعتقد يا يعقوب متى سنتحرك إلى غزة ؟

- لا أعرف . خان يونس ريحها طيب ومزارع الزيتون ممتدة .

- فتيات رام الله كانت أنجع للصحة .

يقول ذلك ثم يردف سخريته بصمت كئيب . الكلام مكرور ومعاد . الصحراء بوجه واحد لا تختلف كثيراً . النصر أصبح يصيبه بالملل و الغثيان . الحياة تسير على وتيرة واحدة . الزهو لا يصلح وسلاح عدوه

obeikan.com

حفنة حصى .

كان الزهو طبيعياً فى فيتنام وفى الجولان وفى سيناء . الموت لهؤلاء الحكام . يحرموننا من دفء الأسرة وأحضان الغانيات وصالات الديسكو فى تل أبيب .

الطريق بلا نهاية والتاريخ لا يعرف متى سيضع قلمه . لماذا نقتلهم بالتقسيط ؟! فى هيروشيما ونجازاكى كان التصرف أكثر حكمة !

يسرح بفكره ويأخذه العجب بعيداً . هؤلاء الأنبياء الحمقى ماذا كان يعجبهم فى أرض المعاد هذه ؟!!

يتنهد فى تسليم . وطن وحلم أفضل من لا شئ . يمسح الأفق بالمنظار . سارينا يبدو أنها لن تأتى . يفتش فى الأنحاء . يبحث عن صيد جديد . لا يريد أن ينسى هوايته . يتبرم . الحمقى لم يستيقظوا بعد . ماذا سيصطاد اليوم ؟! يضحك بشدة لا يوجد سوى " عموئيل " .

سيطلب من القائد أن تخدم معه مجندة . يعقوب لا يصلح للجنس ! ليس عليهم أن يتركوهم فريسة للملل .

عقله يسافر إلى نيويورك . تبهره الأضواء وتحتويه الزحمة . ما أدفأ لياليها . مجنون " هرتزل " هذا ! كان العالم كله وطنا لهم .

obeikan.com

يطلب كأسا آخر من الجعة . يفاجأ بأن الزجاجة فارغة، يطوح بها فى غضب؛ فيرتفع صوت تهشمها يدغدغ صمت المكان .

يستولى على انتباهه شبح يتحرك . يسعده كثيراً . هدف جديد وصيد جديد . سيمارس هوايته المفضلة . سيدفع عن نفسه كل جبال السأم الجاثم على صدره .

ولا يمكن أن ينسى أنه واجب مقدس، وطنهم سيشيد من تلك المقذوفات الفارغة . يضبط بندقيته نحو الهدف . يركز جيداً . الرأس أفضل نقطة للتصويب، ما بين العينين . الهدف يتهاوى على الأرض . يبرز لسانه الطويل الأحمر ويصفع الهواء ابتهاجا.

إشارة عاجلة بالتقدم إلى النقطة " ف " عملية تخريبية ويوجد ضحايا . يسترد نشاطه .

- هيا يا صديقى يبدو أننا لن نستسلم للكسل .

يتقدم بحذر . الطريق خالٍ إلا من قطع الأحجار الصغيرة والدور المتهدمة وأشجار الزيتون المحترقة . المدينة فى عينيه قطة ترتعد من الخوف، والنصر مازال كريهاً . يهدم عددا من الدور فى طريقه، يرسل بعض الطلقات المدوية، العظمة شهوة وجنون أكبر منه . أحيانا لا يستطيع السيطرة على نفسه . على العموم هذا يعجب قائده، ودائما ما يثنى عليه

obeikan.com

فى تقاريره.

يفح فى أذن زميله بخبث:

- اليوم لن يوبخنا القائد . يبدو أننا سنتخلص من كل حمولتنا !

يصل إلى النقطة المطلوبة . يفاجأ بها ممددة على الأرض . شعرها الكستنائى غارق فى الدماء. الموت لم يسلبها أنوثتها. منذ قليل كان يتوهم خيانتها.

- سارينا يا حبيبتى . لقد قتلوك غدراً .

- الطبيب الشرعى قد أوضح فى تقريره يا " بنيامين " طلقة قناص محترف فى الرأس فيما بين العينين ومن نفس الاتجاه الذى كنا فيه .

يرفع بنيامين رأسه مذهولاً . تتراجع دموعه عن التدفق ويتحجر بعضها فى عينيه. يصرخ فى زميله وهو ينظر إليه نظرات موحية ومتوعدة .

- اصمت يا عموئيل . لا وقت للكلام . أخبر القوات بأننا سنتحرك فوراً . سنلقنهم درساً لن ينسوه .. الإرهابيون .. القتلة!

يرمقه بركن عينيه وتتعثر الكلمات على شفتيه . يحاول أن يقنعه بأن المقذوف قد جاء من نفس الاتجاه الذى كان يرابط فيه فلا يهتم.

يمضى بتراخٍ يجرجر قدميه. صوت المذياع يرتفع إلى أذنيه؛ يصرخ

بتشنج. "العم سام يدين بشدة الإرهاب ويدين مقتل القديسة سارينا !"

بينما الكراكات تعمل بمهارة فى هدم الدور. دوامات الغبار تلفه فيغيب عنه العالم ويغيب عن العالم، فى برهة يستحضر خلالها كل سنوات القتل. الكذبة أكبر من أن يحتملها الواقع . الحى العربى تأكله النيران المستعرة. صرخات النسوة والأطفال ترانيم جنائزية، والمدينة حيوان خرافى ربما يستيقظ يوما ما ويدمر الجميع!

يزداد تراخيه. يرفع بصره إلى الأفق الكابى؛ فيرمق البقعة المظلمة وقد ازداد اتساعها. يتابع سيره لكن في عكس اتجاههم..

obeikan.com

بكر الشجيع

قلت لهم أنك غريب ولا تستطيع عبور الجبل. ردك عبد الشافى مرغبا "يا شيخ هتتحين"، دس صرة النقود فى عبك وكأنها جمرة مشتعلة يبغى الخلاص منها.

مضيت تقدم خطوة وتؤخر أخرى. تعد بأنفاس لاهثة وقلب مضطرب صرة النقود. ربما لو وجدها ناقصة قتلك ودفنك فى حفرة عطنة أو ألقاك وليمة للسباع.

لقد أقسم عبد الشافى برأس أبيه أنه رآه وهو يصطاد غزالة بحجم الفيل، وانكفأ عليها يسلخ جلدها ويمزقها بمديته، ثم تسمر بعوده الطويل فى بقعة ضخمة حمراء يدفع بشرائح اللحم النيئة إلى فمه ذو الأنياب البارزة .

تمتطى الشريط الجبلى المتعرج الآخذ فى الارتفاع شيئا فشيئا. تسوخ قدماك فى رمال ناعمة. يزداد لهاثك وتتدافع دقات قلبك بغير انتظام.

تتبعثر أناتك فى رمل الطريق الطويل. تجرح أشواك العاقول قدميك الحافيتين. تحشو الرياح جفونك بالرمال الناعمة. ترهبك العاصفة

obeikan.com

وتتمنى لو تنكص على عقبيك، الهرب نصف الشجاعة ولا يعنيك النصف الأخر فى شئ. شق الثعبان هذا ملئ بالحكايات والغرائب، تسكنه الأفاعى والعفاريت.

إنك لا تخشى سوى من هذا الشجيع الذى أنفق جل عمره فى المفازات والبوادى . مسكنه عرين الأسود وطعامه السحالى والفئران وحيوانات الضب. ماذا ستقول له؟ كيف ستواجهه وأنت خائف مرتعش؟ شخطة منه وسيطير صوابك، وقد تروح فى إغماءه طويلة..

" الله يلعنك يا عبد الشافى فى كل كتاب، أنا ناقص خضايض وقطع خلف، سيموت أولادى فى ظهرى " .

عندما قدمت من الصعيد تهرب من جحيم الثأر. سلمك الريس محروس مقاول الأنفار ورديتك الأولى لك فى شق الثعبان. سألك بسذاجة هل تعرف ضرب النار؟ منحك الطبنجة الصوت وهو يرتعد. تطلع إلى ساعته ولمح قرص الشفق المحتضر . قال بنبر راجف:

-سأمضى قبل الليل. المكان هنا آمن. لكن علىّ أن ألحق أخر عربة تغادر الموقع.

ثم أطلق ساقيه للرياح وهو يتلفت حوله فى وجل، يفر سريعا من هذا الأمان. وقتها اقترب منك معطف يلف جسدا نحيلا ، ينفث لفافة من الدخان ويتقلد

ابتسامة صفراء. يند منه صوت خفيض واهن وكأنه يأتي من إنسان آلي أو من علبة من الصفيح. عرفك بنفسه أنه عبد الشافى زميلك فى نوبة الحراسة. ثم انبرى يهمس عن الجبل وما يحوى فى بطنه من أسرار. وعندما أتى الريس محروس يحمل فى جيبه مبلغ الإتاوة. رفض عبد الشافى أن يلمسها بيده وراح يرغبك قائلاً :

-تلك النوبة سوف تذهب أنت. لابد أن تتعرف على كل تفاصيل الشغل.

-ولكنك قلت عنه أنه مجرم ظالم لا يعرف الله وقتال قتله.

وعبدالشافى كدأبه فى الحديث يضرب صدره بشدة مظهراً أبلغ أمارات الدهشة وكأنه يسمع الكلام لأول مرة ثم يقول:

-انا قلت هذا! لا والله ليس صحيح. انه رجل مبروك.. والله رأيته بعينى التى يأكلها الدود بيصلى والضباع تحرسه.. سمعت أنه كان يعمل فى مرسى مطروح.. وحصره البول.. وهبط من سيارته ومر فوق حقل الألغام.. كى يعملها فى الخفاء.. وكلما داس فوق لغم لا ينفجر إلا بعد أن يتركه بمسافة كبيرة.. لو أنه مجرم وسفاح كانت تحدث له كل هذه الكرامات..مدد يا شيخ العرب مدد..

-ولكنك قلت أنه بيأخذ الفلوس إتاوة حار ونار وربنا لن يبارك له فيها.

-انا قلت هذا.. لا والله ليس صحيح.. إحنا قاعدين فى المكان نايمين

Openkan.com

واكلين شاربين آمنين على حسه.. وكل صاحب حاجة يطلع له الجبل..

ويظل يرغى ويزبد ويقسم بالطلاق من زوجاته الثلاثة. ولا تجد مفرا من القبول وهو يذكرك بصعيديتك التى لا تهاب المخاطر. الآن البول الساخن يغرق سروالك ويصنع خلفك نقاط من المياه ورائحة كريهة. الجبل يسخر من صعيديتك الجبارة التى بللت شعابه!!

عواء الذئاب لا تخيفك قدر سحنته البشعة وأنت تتخيلها. طوله مثل طول النخلة العالية، وصدره كجدار منزلك القديم، وشاربه مهوش كليف النخيل، ساعده صنو جذع توتة عفية. كلمات عبد الشافى يهمس بها الجبل وهو يضحك ضحكة صفراء تزعج الضوارى، فتحيطك بجو أسطورى. وطائر خرافى سوف يحملك بفكيه ويلقيك فجأة بحجر بكر شيخ العرب، ليذبحك بخناجر شواربه المفتولة.

لقد تركت خوفا خلفك بالصعيد والآن تُدحرج خوفا أمامك. سوف يخرج لك فجأة من ثقوب المغارات فى جسم الجبل كأفعوان.

تمضي فى طريقك وشفتاك تتمتمان بالمعوذتين والصمدية وآية الكرسى، تتفل على يسارك. تتوكل على الله فالعمر واحد والرب واحد. تضرب بعينيك بعيدا ربما لمحت إنسا أو جنا يطأ وحشة الخلاء.

كم من ليلة أنفقتها وأنت تتابع دوائر النار والمشاعل التى تشبه الريالات

obeikan.com

الفضة وهى تتحرك فوق ظلمة التبات العالية، وعبد الشافى يلوح بذراعه الأعجف، يصيح بهستيريا مرحبا بلهاثه، والربو يمزق صدره، ثم يلتفت إليك ويقول أنه ريس الجبل وحامى حماه. اعتدت أن تأخذ كلامه بسخرية وتهكم.

وفى نوبة حراسة ليلية ضربت كشافات سيارة نيفا روسى تجاعيد وجهك الضامر. هبط منها رجل هشم الظلام ملامحه. يدفن يديه فى جيوبه من البرد وتصطك أسنانه.

تقدم عبر السلك الشائك إلى مشروع السلام، أمر خفراء الموقع بنقل حمولة الأسمنت والحديد إلى سيارة نصف نقل. وبعد أن انتهوا أمر أحد الخفراء الأشداء أن يربط زملاءه بحبل طويل أحضره معه وتكميمهم. بعدها تطوع سائق النقل بتكتيفه وتكميمه. وانطلقا لا يلويان على شئ. وعندما اقتربت تحل وثاقهم وتسألهم لماذا لم يقفوا أمامه وهم مسلحون ببنادق حديثة. قالوا إنه بكر سيد الجبل وشيخه.. وأن الرصاص لا يؤثر فيه.

تستوقفك أيضا تلك الليلة الليلاء. وقد استيقظت على صراخ أمين المخزن بنقب جدار المخزن وسرقة الشنيور الكهربائى. واستدعى ريس الموقع شيخ الجبل على عجالة. وضربت كشافات السيارة النيفا وجوه الرجال

المحتشدين أمام ظهر المخزن المصنوع من خشب التبن، ونزل شيخ الجبل متدثرا بعباءة الليل، وتحدث مع بعض رجاله، ثم جلس فوق مصطبة من شكائر الأسمنت يتابع الموقف.

تقدم نائبه. أمر بجمع كل رجال الموقع وأنت معهم. وقفت فى الطابور الطويل. وطرقعات الأكف وعويل الرجال تتردد أصدائها فى صمت الجبل. وقبل أن يصلك رجال الشيخ. استدعاهم بإشارة من إبهامه. وراح يسأل عن الوارد الجديد من الأنفار. فتقدم ببطء شاب نحيل، ركع أسفل قدمى الشيخ، يستغيث ويطلب منه أن يسامحه. وأقر بالمكان الذى يخبئ فيه الشنيور. وعاد الشيخ منتصرا يهضمه الليل دون أن تشاهد ملامحه، واختفى الشاب النحيل فلم يظهر بعد ذلك..

ترمق شبحا يتحرك فتنتبه وتختلج داخلك الحياة. تعدو خلفه ليكون أنيسك ودليلك. تصطدم بشيخوخته المهلهلة، عجوز بعمر الجبل. تتهالك بجواره تستندان بظهريكما على عربة جيش قديمة وتشاركه التقاط الأنفاس. ترمق ذراعه المبتورة وتجاعيده المتناثرة ووجهه المسحوب وعوده الضامر فتشفق عليه، ربما كان ضحية من ضحاياه.

تسأله عن المدعو بكر الشجيع، وكيف يعبر الجبل ولا يخشاه؟ يكحح بشدة ثم يبصق مخاطا أسود من صدره الذى هو فى متانة قشر البيض، يقول

بوهن وهو يبرز سلاحه الآلي -المتوارى فى البلطو القديم- الذى هو بمثابة بطاقته الشخصية الآن:

-أنا بكر !

تشاهد الشاب النحيل ينادى على الشيخ. تتطلع إليه بدهشة. تذكره جيدا وتمسك قفاك وأنت تسترجع لحظة استرجاع الشنيور، حامدا ربك أن أكف الرجال لم تصل إليك. تغمرك الدهشة وتزول عنك سحائب الخوف وتتكشف أمامك كثيرا من أسرار الجبل، ورجاله الذين يقبضون على اللصوص فى غمضة عين.

تدس يدك فى جيبك وتخرجها خاوية.. يسألك عن سر وجودك بهذا الخلاء.. تبتسم دون أن تجيب.. تقفل راجعا وأزيز الحكايات المختلطة تتوارد فى ذهنك عن وحشيته وجبروته وطوله الذى يفوق طول نخلة فارعة، وذراعه التى تشق جداراً خرسانى..

تواصل سيرك وأنت ترمق الكتل الصخرية الرمادية، وتستشعر هشاشتها التى ربما بالغت الطبيعة فى الحديث عنها. تلتفت فى شفقة إلى الخلف ترمق تجاعيده وشحوبه وشيخوخته، يوافيك سعاله الجاف ومخاطه، بينما تتحسس أصابعك الصرة القابعة فى سيالتك وتمضى ببطء مبتسما..

ليلة غير عادية

دقات الساعة الآن تنبئ بالثالثة مساءً موعد مغادرتى العمل. عند أقرب محطة أنحشر فى أول أتوبيس. ربما لا يعنينى ازدحامه بقدر ما يعنينى أنه لا يوجد به ثمة تغيير ملحوظ. نفس المحطات ونفس السائق ونفس المحصل. ربما نفس الركاب العاديين أيضا بوجوههم الجامدة المتبرمة دائما.

على باب شقتنا تلاقينى زوجتى بابتسامةٍ باهتةٍ. تستقبل أكياس الفاكهة باحتفاء أكبر وتطير بها إلى المطبخ. أنتزع حذائي وأنضو عن نفسى ملابس العمل الثقيلة. دائما ما تستقبلنى حماتى العجوز بمصمصات شفتيها وهى تردد متبرمة "ياما جاب الغراب لأمه".

خناقات الأولاد على حبات الفاكهة و كرات البلى، صوت ضجيج التلفاز وهو يبث برامجه المزعجة، خناقات الجيران وصياح الباعة وهو يتسلق شرفتنا فى رتابة.

وحش من الملل يهجم علىّ، أكتفى من الجرائد بعناوينها ومن فنجان القهوة

obeikan.com

بالرشفات الأولى، شئ يصرخ داخلى ويحثنى على الخروج من مساماتى. الحكة تصيبنى فى كل أنحاء جسدى. ربما لو نشبت أظافرى ونزعت غطاء جلدى عن بدنى حلت المشكلة. أريد تغييرا ما يشملنى. أيامي ما هى إلا شريط قصير لا يفتأ أن يعاود نفسه بين الفينة والأخرى.

يدى تزحف إلى حيث شريط المهدئات. أفرك ما تبقى فيه وأرفعه إلى فمى.

تقترب منى زوجتى وتفح فى أذنى كدأبها كل يوم:

-تتغدى ولا تأخذ حمام الأول .

تناولنى المنشفة من الباب الموارب. تمنحنى ابتسامة أظنها محفورةً على شفتيها منذ عشرين عاما.. أي منذ زواجنا تقريبا. تمنيت لو تدب بيننا معركة حامية. يسمعها الجيران ويتدخلون لفضها. أصفعها أثنائها صفعات متلاحقة، وأركلها بقدمى فتسقط على الأرض؛ تتلوى كدودة، وأنال من تلك الخنفساء الدميمة حماتى، لو حاولت أن تدس أنفها بيننا كعادتها.

زوجتى امرأة هادئة مطيعة. على النقيض من حماتى.. امرأة كعاصفة.. حتى بعد هدوئها تحمل فى ثناياها الغبار والأشواك.. مات حماى وهاجر أولادها وكان لابد أن تنتقل لتشاركنى زوجتى وأبنائي ومنزلى.. تعد علىّ أنفاسى .. تحاسبنى على كل صغيرة وكبيرة .. حتما تتلصص علينا من ثقب الباب .. تحرض زوجتى علىّ وتنعتنى دائما بالجبن .. هى أيضا

obeikan.com

أصبحت شيئاً عادياً فى حياتى لا يتغير .. ربما لو قابلتنى بابتسامة دافئة، شدتنى فى أحضانها كابن من أبنائها، ورفعت يديها نحو السماء ولهجت لى بالدعاء، ربما تحولت علاقتنا إلى علاقة غير عادية .

الآن الساعة تدق الرابعة. سيرن جرس الباب المزعج، وستفتح زوجتى؛ فيطالعها وجه صبى الكواء ويداه تتصلب أمامه بالملابس بعد كيها وغسلها بالبخار.

فى ذيله يأتى الزبال بملابسه المتسخة ورائحته النفاذة، ينحنى أسفل حاوية كبيرة فوق ظهره.. يجمع (وهو يبرطم) القمامة المبعثرة فوق باسطة السلم بغير اعتناء. يطلب بتهجم أجرته المتأخرة. تنهره زوجتى كونه لا يمر على شقتنا باستمرار .. وبدورها ستؤخر عنه الأجرة. قد تدخل معه حماتى فى ملاسنة حامية وتستدعينى كى أؤدبه أو تؤدبني هى بلسانها الزلق .

كل شئ يسير بدقة ساعة الحائط؛ التى تمنيت ولو تحطمت وأصبحت علاقتى بالزمن الملول علاقة جديدة.. بها من التشويق ما يخلع على حياتى بهجة وسرور. مديرى فى العمل وزملائى يجمعون أننى شخص غير عادى، ومع ذلك أحيا حياة عادية.

فى السابعة تقريبا يدق الباب مدرس اللغة الانجليزية. يلتف حوله الأولاد

بكراريسهم وصمتهم؛ وتتوالى أقداح الشاى والقهوة وأطباق الجاتوه. زوجتى تعرف طريقها جيدا إلى مخبأ نقودى. تمنحه أجرة الحصة والحصص السابقة ويمنحها وعوداً جديدة بالحضور فى السابعة بالتمام والكمال .. آه لو تأخر هذا الملعون .. آه لو مرض أو تعطلت به سيارته الصغيرة .. لكنه يواظب على استنزاف نقودى بشكل أكثر مللاً.

فيلم السهرة أيضا ملول مضجر .. شاهدته أكثر من مائة مرة .. وجه المذيعة مدهون بنفس الطلاء، ينتعل نفس الابتسامة، حتى ألوان الشاشة الباهتة تحافظ على النغمشة الخفيفة بها.

قميص نوم زوجتى الوردى الذى يلتصق باللحم وتغنجها لن يحل المشكلة. ربما هذه العلاقة بالذات صارت أكثر روتينية.

السعال المتواصل لحماتى يجعل النوم يفر من بين جفونى. إيقاع سقوط قطرات المياه واستقرارها بالحوض المعدنى يجعلنى أخرج عن شعورى. الآن بمقدور حزمة من الأفكار الجامدة أن تجعل الليلة حافلة بالأعاجيب.

تسللت إلى المطبخ لتستقبلنى روائحه العطنة. صوت زوجتى يرتفع فى هدأة الليل فيستوقفنى؛ أسمعها تتعارك مع صغيرى لأنه فعلها وبال على نفسه كعادته. حماتى تواصل نقدى فى صورة الصغار والدعاء علىّ. الأصوات تنقر رأسى كمطرقة.

Openkan.com

حشوت فم الصنبور الثرثار بقطعة قماش صغيرة. رأيتها فوق الرف تطالعنى ببريقها وصمتها البليغ. تناولتها بابتسامة وارتياح عجيب. سطحها اللامع المصقول غير عادى. ستصنع لى جواً صاخباً، ستكسر ما أتكبده من ملل.

اقتربت متسللاً من حجرتها. أنفاسها الحارة تعبئ المكان. تواصل السعال. تتفل فى منديلها وتتمخط وتلعننى فى سرها حتما. الصنبور اللعين يواصل استفزازي بضوضائه، يسبنى بإيقاعه المنغم.

أدور حول سريرها بحذر. أطوق رقبتها المكرمشة من الخلف. أسمعها تنادى زوجها الميت وهى تتأوه بغنج عجوز. أشهر سكينى. أشعر مع صرخاتها المتتالية شعورا جديدا مبهجا؛ يزيح عن كاهلى ما علق به من أدران العادية.

صراخ زوجتى المكتوم وذهولها، التفاف الجيران من حولنا وتهامسهم شيء غير عادى.. صوت سارينة الإسعاف وسيارات أخرى غامضة، رجال غير عاديون بملابس بيض وسحن متجهمة، قميص بأكمام طويلة ينحشر فيه ذراعى مقلوبا.. ورجال أشداء يدفعوننى أمامهم بقسوة.. لا أعرف بالضبط إلى أين يقودونى .. لكننى فقط أعرف أن ليلتى هذه ليست ليلة عادية!!

عادة

لم أبصر إلا وأنا أحمله من مقبضه الأبنوس، وأهوى به على ظهره العارى بكل ما أوتيت من قوة وبأس، يصنع الكرباج خطوطاً أفقية ورأسية فوق تضاريس جسده، يغرغر، يضعف نبضه، يتصلب جسده الناشف. أتذكر أنني غمسته فى الزيت عدة أيام ليكون لاهباً.

الغريب أنه أظهر توجعه فى البداية. بعدها بدأ يقشر من وجهه كل الانفعالات المتاحة. ربما أراد بطريقته أن يغيظني، أو أن يدفعنى إلى هوة سحيقة من اليأس والفشل.

أنهال عليه مرة أخرى بكل غلى وسخطى عليه، أركله فى بطنه بجماع قوتى، أعضه بأسنانى الحادة مغيظا حانقا، أستميت فى الضرب، أخشى أن ينال منى ويهزمنى.

لن أتركه حتى تند منه استغاثة أو ينفطر من البكاء. أعلم أنه لا يفعل جل ما أريد. ربما لو رجانى سأتركه وشأنه. قد أكتفى بكلمة استرحام بسيطة لن تكلفه شيئاً. إيماءة أو إشارة صغيرة من خنصره؛ ربما تشبع نهمى

obeikan.com

وغـرورى.. هذا الأصفر الشاحب المغرور.. أعرف أنه مشاكس وعنيد .. متكبر .. تكفينى رفة من جفنه، خلجة من عضلات وجهه الجامد، لن أترك هذا الوغد هكذا بلا مقابل.

اللئيم لا يحرك ساكناً، يتلذذ بمضايقتي بابتسامته الوقحة الفارغة. يجرفنى شلال الغيظ إلى بلاد بعيدة من الكراهية. أجرده مما تبقى من ملابسه. أقدح زناد فكرى فى أشياء مبتكرة تجعله يخضع لى. لا يمكن أن أتوقف دون طلبه الرحمة منى، أراه ولو لومضة خاطفة يتألم، ربما أقنع ببعض الأفعال اللاإرادية، مثل أن يتبرز فى سرواله أو يبول على نفسه، قد أقبل إغماءه بسيطة منه، سيستضعف موقفى لو تركته، وربما يسخر منى فى قرارة نفسه. لابد من التعامل بحزم مع أمثاله الأوباش، فى الجراب حيل كثيرة .

فكرة طارئة. المكواة تحمر غضبا من عناده. أمررها فوق جسده ورائحة الشواء تملأ أنفى. بغبطة يتمدد فوق أرضية الحجرة العطنة، يسد فرج البلاطات المهشمة ويعدد النتوءات السوداء على جسده. أطوح بها مغتاظا من الشباك. أخف إلى المطبخ، أحضره من فوق الرف المائل، أحشو جروحه بالملح، أركز على الغائر منها. يتلمظ مستعذباً مذاقه وهو يدفع مسحوقه الأبيض إلى فمه.

ثمة تغيرات طارئة على الموقف برمته. الشعور بالهزيمة راح يتهددنى ويعصف باللعبة بأكملها. فتحت كتاب التعذيب بجلدته المهترئة، أتذكر تاريخ آخر مرة وضعت له جلدة جديدة. بالتحديد ثلاثون عاما مضت، يجب أن أضع غلافاً جديداً لأوراقه الصفراء. أخرجت منه ألواناً وألواناً. يبدو أننى فى النهاية فشلت أن أجابه عناده وصموده.

لجأت إلى تشغيل اسطوانة مدمجة على كمبيوتري العتيق. كانت فكرة شيطانية. بعد فاصل من المشاهدة والاستمتاع، سحبته من رقبته إلى حجرة النوم فى رحلة قصيرة – وأقول قصيرة لأن اضطراب أعصابي فى الأيام الأخيرة جعلنى لا أطيل-، لم يمهلنى حتى خلع لباسه التحتانى ونام على بطنه، التفت نحوى وعلى وجهه نفس الابتسامة الوقحة. تقززت من مؤخرته القذرة الغاصة بالذباب. تراجعت فى اللحظة المناسبة. ربما لو اعترض، لو صرخ، كنت أنهيت مهمتى بتلذذ.

عدت إلى الصالة، مزقت كتابى الأثير الذى كم استفدت منه قديماً. حطمت الاسطوانة المدمجة، استبد بى صداع فتاك، فركت شريط المهدئات وابتلعته عن آخره .

فتحت متصفح الإنترنت، جعلت أبحث عن حل لهذه المشكلة العويصة. بالضبط كتبت ما أريده.

لاح لى حل عبقرى، رحت أنفذه بحذافيره. ملت أقبل رأسه وأعتذر عما بدر منى خلال ثلاثين عاماً. اصطحبته إلى الحمام، فتحت فوق شعره المهوش صنبور المياه الساخن. نشفت بنفسى عوده اليابس وداعبت عورته مستثيرا نشوته الغائبة. رحت أغنى له حتى غرفة نومى. فتحت خزينة ملابسى وأخرجت له أجدد بدله لدى. أعنته على ارتدائها، من قبل دهنت جروحه بالكريم والمرطبات. لم أنس أن أعطيه حقنة مورفين ليقاوم ما به من وجع. فكرت أن أكتب له شيكاً على بياض ليقوم هو بوضع الرقم المناسب به على سبيل التعويض.

تركته فى الصالة وغبت فى المطبخ؛ أعد له كوباً طازجاً من الليمون البارد. عدت سريعاً وعلى وجهى ابتسامة عذبة؛ فارقتنى منذ سنين. كانت المفاجأة القاسية. رأيته بأم عينى عارياً كما ولدته أمه. البدلة ممزقة أشلاء فى أنحاء الغرفة. جروحه الغائرة تواصل النزيف. الابتسامة القديمة تعود إلى فمه المزبد.

واجه دهشتى ببروده المعتاد وتبلده. لم ينبس. لم يحاول أن يبرر موقفه. فقط اندفع إلى الحائط وأحضره من موضعه. علت وجهه ابتسامة جامدة وقحة، تكور أسفل قدمى مطأطئً رأسه حتى كادت جبهته أن تلامس البلاط البارد، أبرز ظهره الغاص بالجروح والندوب وكتم أنفاسه، وقرر ألا يتوجع،

بينما الكرباج فى يدى -وقد انقلب غضبى إلى حنق مجنون- يكوى ظهره الناحل بلا هوادة.

obeikan.com

حارة غريب

لعل خروج أبى على المعاش المبكر -كحيلة دبرها بالتواطؤ مع طبيب القومسيون- بداية تحول جذرى فى حياتنا. انتقل أبى من الشباب إلى الكهولة بخطاب رسمى ممهور بختم النسر، وانتقلنا جميعا إلى شقة شابة واسعة بمبلغ المكافأة. فى عمارة الفردوس، بحى الفردوس، أمام حديقة الفردوس، يعنى بتفسير أخوتي الكبار عرجنا من الجحيم إلي الجنة، بينما رفضت جدتى باستماتة هذه الفراديس الثلاثة.

كان بيت جدى رحمه الله فى حارة غريب بحى الحمراء، يتألف من طابقين شيدا من الطوب اللبن، اقتسمته معنا السحالى والحيات كما يقول أبى، الطابق السفلى يتقلص إلى غرفة يتيمة، وفناء كبير تتقافز فيه الضفادع، يتوسطه سلم تم بناؤه من فلاق النخيل المشقوقة، ودرجاته قد طليت بالقرميد، الذى تقشر بفعل الزمن وأطلت من فرجه قوالب الطوب النيئ.

فى منور السلم براح واسع، قسم بالقسطاس بين مرحاض صغير ومطبخ وضع فيه موقد الكيروسين، وعلقت أمي عناقيد الثوم والبصل.

obeikan.com

فى مدخل المجاز زير كبير، ينتصب يبول الفائض من المياه فى وعاء فخارى صغير، وديك رومى منفوش يلقلق وهو يخطر بحرية، سفيرنا إلى الحارة باب ضخم بارتفاع الدار واتساعه، به عوارض من حديد مشغول وحلقة ضخمة على شكل رأس أسد، تخترق شروخه أعمدة من نور الحارة، تبرقش الصالة بدوائر بيضاء، تتدلى من قمته حدوه حصان وصندل صغير وقرن ثور. قالت جدتى أنه باب إحدى الوكالات القديمة التى تعود للعصر العثمانى، اشتراه جدى لحجمه العريض، ولإيهام الناظر بأن البيت كبير.

بالطابق العلوى حجرة الكرار بها خزين البيت من سمن، وبلاليص جبن وعسل، وأجولة للدقيق، ينتصب فى زاوية مظلمة سرير صغير بأعمدة من نحاس، يستلقى عليه جدى وقت القيلولة، وفى المساء يستضيف عليه أصدقاءه المقربين، وفى آخر الليل نصطف فوقه وأسفله أنا وأخوتي عندما نخلد للنوم، بينما يزاحم جدى بدكته الخشبية كلاب الحارة وهوامها الليلية، وينام يحرسه الطل والصقيع، وتكتفى جدتى ببساط قديم تفترش به تعريشة السقف ملتحفة بالسماء، تتعلل بحراسة طيورها من القطط واليرابيع، وتكون بجوار برجها الأبيض الصغير التى تربى فيه زغاليلها، وهى فى الحقيقة تعمل جاهدة لإقناع أبى باتساع المكان، ربما طرح من حساباته فكرة مغادرة الحارة.

فى أيام رمضان كنا نرش بساطه الترابى، ونشد على جانبيه البيارق والزينات. تشد أمي بدورها الطبلية وسط المجاز، وننتظر بلهفة مدفع الإفطار، ثم نمد أيدينا بشكل جماعى نلتهم طواجن الطعام على صياح أطفال الحارة وهدير مدافعهم الصغيرة.

بعد صلاة العشاء يزورنا فقى كفيف البصر، يرتل القرآن كل يوم، ويستمر مواظبا على ميعاده المقدس طيلة الشهر الكريم.

وكان الجيران يدخلون ويخرجون علينا، وبالطبع نروح ونجئ من عندهم بحرية، مما جعلنا وإياهم لا نشعر بضيق الأمكنة، منهن من تطلب بعشم أو على استحياء عرش بصل أو فص ثوم أو حتى معلقة سمن صغيرة.

وكم من مرة مرض أخي الكبير بالحمى، ورقد طويلا فى الفراش؛ والزائرات يأتين محملات بالهدايا والدعوات، لا تنقطع حلقات النساء عن مواساة أمي وتصبيرها طيلة فترة مرضه الطويلة.

وكنت أنفق جل وقتى فى اللعب مع قطة جدتى العجوز، التى انفردت بسرير وثير فى طاقة طينية بمنتصف الجدار، صنعها جدى بانتزاع قالبين من الطوب النيئ. كثيرا ما فتشت عنها فى الشارع أو فوق السطوح، وأرتد خالى الوفاض فأجدها منكمشة ببيتها الصغير الذى ارتضت به، يلمع أمامها الخبز المبلول ومسقاية المياه.

كلما رأتنى دارت أسفل قدمىّ تتمسح بى وتلعق أصابع قدمى، دونا عن بقية إخوتى، الذين دأبوا على ركلها وقذفها بما تحمله أيديهم من أغراض، ومطاردتها كلما وجدوها تسبل جفونها فوق الفراش أو سجادة الصلاة، أو فى طوفانها اللحوح حول خوان الطعام وهى تتلمظ.

انتقلنا جميعا إلى فردوسنا الجديد، إلا جدتى وقطتها وزغاليل الحمام فقد بقوا على حالهم.

شقتنا الجديدة معلقة فى الطابق الخامس، الجدران مطلية بطلاء ناعم أبيض كالحليب، والأرضية مغطاة بسيراميك أملس يصعب عليه أن تحفظ توازنك، بمقدورى من شرفتنا أن ألمح النيل العجوز، والحديقة بينما الخريف يطحن عظامها الهشة.

ولكون بنايتنا لا يوجد بها مصعد، لم تزرنا جدتى إلا في الأعياد أو لم تزرنا على الإطلاق، فى حين واظبت أمي على زيارتها كل جمعة كى تحممها، وتصفف ما تبقى من شعرها، وتطهو لها طعام الأسبوع.

جاء شهر رمضان وانصرف دون أن نشعر به، أو نعلق البيارق الملونة والزينات، أو يطرق علينا الباب طارق خلاف بائع الخبز وجامع القمامة. حتى الفقى العجوز الذى اتفقنا معه ليقرأ القرآن فى ليالى رمضان ووافق، جاء يومين ثم انقطع، ربما لصعوبة السلم أو لأنه لم يجد تجاوبا منا مثل

أيام البيت القديم.

مرض أبى بنفس العلة التى ساقها فى التقرير طبيب القومسيون، واشتد عليه المرض ولزم الفراش أسبوعا كاملا. لم يطرق علينا الباب طارق.

أتذكر جيداً ابنة الجيران التى شاهدتها مرة واحدة؛ تلهو بقطتها الصغيرة ببسطة السلم. تقدمت منها حذرا، منحتها قطعة من الحلوى، منحتنى بدورها كفها الصغير، ابتسمت وكانت بداية تعارفنا. تلك العلاقة الوحيدة التى أقمتها بمنزلنا الفردوسى وطال عمرها دقائق معدودة. طفقنا خلالها نلعب بالقطة ونناغيها. ظللت أداعبها فأجد تجاوبا من القطة والفتاة. فجأة انفتح الباب، وخرجت منه امرأة غاضبة ترتدى روباً أحمر شفافاً، جذبت الفتاة من ذراعها، وطوحت بقطعة الحلوى إلى سلة القمامة وهى تتأملنى باشمئناط، سحبتهما إلى الداخل فى عنف وكأنها تخبئها منى وصفقت الباب وراءها. سمعت صراخا وبكاءً ومواءً، المرأة تزعق بعلو صوتها وكأنها تريد أن تسمعنى:

-ألم أقل لكِ لا تلعبى مع الغرباء؟

عدت ممرورا وتمنيت أن يعاد التصويت على ترك الحارة من جديد، وتركت خلفى لزوجة أفكاري وبرودة السلم الرخامى والباب مواربا. ربما رجوت من هذا منح فرصة أخرى للجيران، معللاً فى ذهنى العاصف هذا الجفاء

بالحجر المغلقة دائما.

اقتحمت الشقة يسبقها موائها. هرعت من حجرتى ملبياً. قدرت أن ابنة الجيران قد عادت بضحكتها العذبة الصافية، بعدما ظفرت بصك القبول من أمها لتشاركنى اللعب. خففت أستقبلها مختالاً بين أخوتى، لأول مرة يأتى زائر كى يدق بابنا.

انطفأت دهشتى. تحول نصرى إلى هزيمة نكراء. لمحت القطة متعجبا. لم تكن الفتاة ولم تكن قطتها. بل قطة جدتى. كيف عرفت الطريق ؟ كيف....؟ أسئلة كثيرة عجزنا عن تفسيرها فى ذلك الحين.

وقفت تتطلع إلينا وهى تموء بشدة، تحك جسدها بالباب وكأنها تقول شيئا. أمر أبى بطردها على الفور حتى لا يتسخ بساط الشقة الفاره، شعرت أمى بانقباض مفاجئ ورفة سريعة فى جفنها، بينما انفجرت أنا فى ضحك هستيرى لا اعرف لماذا.

هرولت أمى إلي حارة غريب وهى تشدنى من يدى، قفزت إلى أنفى رائحة الحارة وهى غارقة بمياه الصابون، رأيت فى خيالى الصبية يلتفون حول حوض طلمبة المياه، يلهون بقنوات المياه التى تتسرب من الشقوق، ويسيرون مراكبهم الورقية الصغيرة.

وجدنا جدتى ممدة فى الفراش وقد تجاوزت حرارتها الأربعين. تحيط

obeikan.com

نفسها بصور جدى وتذكاراته القديمة. تشكو فى ذهول من زغاليلها التى تكبر وتخاف أن تفارقها هى الأخرى. جالت ببصرها المحموم فى جريد السقف الملبد بالهباب وخيوط العنكبوت التى تزخر بالفرائس، راحت تكلم جدى وعلى شفتيها ترف ابتسامة باهتة، صوتها واهن وكأنه يأتي من بئر سحيق.

باتت أمي معها ثلاثة أيام، لم تنقطع فيهم عن البكاء على خالتها، حتى تعافت قليلا وشدت حيلها.

هممنا بالرجوع تحت إلحاح أبى. رجوتها أن أبقى لأرعى جدتى، وألعب مع أولاد الجيران. رفضت أمي معللة ذلك بأن جدتى مريضة ولن تستطيع أن تخدمنى، لا تجاهر أمام جدتى أن أبى لا يقر هذا البقاء، كرفضه دائما سيرة البيت القديم.

كم من سمسار جاء بصحبته، وراح يساومها وعرض عليها مبلغا مغرياً. وفى كل المرات ترفض وهى تنشج بالبكاء، وأحيانا تشد عودها المحنى وتطارده بعصا عجراء، وتشيعه بكلمات نارية وعيناها مليئتان بالدموع : أنت لست ابنى ولا أريدك أن تزورنى. سأقول للناس أن ابنى قد مات .. تريد أن تبيعني وأنا حية.. لن أموت غريبة.. سأموت فوق فراشى.

بعدها يجرجر أبى قدميه هو ومن معه منسحبا حانقا، يبرطم: المرأة

كبرت وخرفت، والله لأبيعه فى يوم ما.

فى زيـارة سرية من خلف ظهره، كبست جدتى رأسـى بطاقية صوف، شغلتها خصيصا من أجلى حتى تدفئني من برد الشتاء، وغمزتنى خلسة بمنابها من اللحم وهى تراقب أمى حتى لا تراها، مدعية فى حنان أنه ما عاد الطعام يصلح من شيخوختها وإنما يصلح بالطبع مع طفولتى الغراء، ووهبتنى قطتها فى سبت صغير. قالت والإعياء بادٍ عليها؛ إنها لا تستطيع أن توفر لها الطعام والعناية الكافية، وإنها ستتفرغ لزغاليلها.

وافق أبى على بقاء القطة معنا بعد بكاء مرير منى ومؤازرة من أمى.

وفرت لها نومه مريحة فى غرفتى. جعلت أحممها بالماء والصابون كما تفعل أمى مع جدتى كل أسبوع. أغرقها بالرغاوى، بينما تظل هى صامتة مستكينة، ترمقنى بعينين براقتين، حتى إذا انتهى الحمام تقوس جسدها وتنفضه بعنف؛ تغرق من تصادف مـروره بجوارها، فيطولها ويطولنى بالسباب والتبكيت، بينما تهز ذيلها تعبيرا عن الامتنان والرضا.

كنت أؤثرها بدورى ببعض مانابى من اللحمة. أقودها فى زيارات ترفيهية للنهر وإلى الحديقة القريبة، ومع كل هذا بدأ يدب فيها الذبول والوهن. لا تقبل على الطعام إلا نادرا. ولأنها كانت تغيب وتعود إلينا متى يحلو لها، وقد يمتد غيابها إلى بضعة أيام، ولكونى خفت هروبها واظبت على غلق الباب

عليها وحبسها. لا تخرج إلا بصحبتى.

اشتد بها الهزال، أشار علىّ أحد أخوتى أن أطوح بها إلى عرض الشارع، فلا فائدة ترجى منها. حالتها تسير من سئ إلى أسوأ. رفضت الطعام نهائيا. صارت جلدا على عظم.

مكثت أتابع ضمورها وشحوبها بالنشيج الصامت. يقابل بسخرية وتعليقات فجة من أخوتى الكبار.

أيام كثيرة تروح فى غيبوبة من قلة الأكل حتى نحسبها ميتة. تدلف أمى إلى المطبخ وتعود بسطل المياه، تغمرها به، تنتفض مذعورة ويتحرك بطنها ارتفاعا وانخفاضا، تهز جذعها، ثم تقوس من نفسها، تتمطى ببطء، ثم ترمقنى بنظرات عاتبة.

امتنعت بدورى عن غلق الباب. فلا فائدة من ذلك وهى لا تقوى على المسير. أقسم أبى بالطلاق على أمى ومنعها من الذهاب إلى حارة غريب.. ذكرها بإهانتها له، ورفضها المستميت بيع المنزل وهو فى حاجة ماسة للنقود. استسلمت أمى غير راضية لهذا القرار الغاشم.

وفى يوم عدت إلى فردوسنا. طرت إلى غرفتى، أخفى فى جيبى ضفدعة صغيرة حتى أقدمها هدية لقطتى. صدمنى فراشها الخالى. جن جنونى. لم يبل غلتى نفر من أهلى. شعرت بأنهم يسخرون منى جميعا ويتغامزون

obeikan.com

علىّ. تشككت بنواياهم الخبيثة. ربما تخلصوا منها بشكل من الأشكال. ثار أبى كبركان ولطم وجهى وتوعدنى. نزلت رغما عن تحذيره لى والدموع تخنقنى. رحت أمسح الشوارع بحثا عنها. هبطت إلى النهر. هرعت إلى الحديقة دون جدوى. ضاقت الدنيا فى عيونى. تركت خلفى هذا الفردوس اللعين، أخذت سمتى نحو حارة غريب، التى لم نكن ولو لساعة فيها غرباء.

طرقت الباب الجهم، وحشرة المن تدفع فى صبر وتؤدة إلى حافة الشروخ رغوة من الخشب المنخول، وحمرة الخجل تصبغ وجنتى، ماذا سوف أقول لها؟ لم أستطع أن أحافظ على هديتها.

أطلت من شرفتها مستطلعة إحدى الجارات القدامى، عرفتنى فراحت تسألنى عن جدتى، وهل رحلت معنا إلى الفردوس.

اجتمع الجيران من حولى وأنا أزرف الدموع السخينة. انتقمت من أبى وفضحت أمامهم منعه لأمى من زيارتها. تكاتفوا وكسروا باب المنزل، وهم يهمهمون ويضربون أكفا بأخرى: أولاد آخر زمن.

ولجت إلى الداخل تزكم أنفى رائحة عطنة. رأيت جدتى فى سريرها متصلبة، باردة، جاحظة العينين، تحيط نفسها بصور جدى وتذكاراته القديمة. تأملت ملامحها الوادعة كطفلة تنام فى سريرها، ملت أقبل يدها الموشومة والتى كانت تمنحنى بها خلسه جزء من منابها، بل كل منابها.

obeikan.com

صعدت إلى السطح والدموع تخنقنى، وجدت البرج خاليا، طار سرب الحمام ولم يعد. هبطت إلى الصالة منهاراً وأنا لا أكاد أصدق ما يحدث، وكأنني فى كابوس لم أفق منه بعد. وجدت قطتى ممددة فى الطاقة الطينية، وخيوط من نور تتسلل من شروخات الباب تكسى وجهها الراقد فى سلام، أمامها مسقاة المياه والخبز المبلول لم تصدع منه شيئا. لسانها الجاف مدلدل أمامها وعيناها جاحظتان، شعرت بأنها وجدتى يلقيان على المكان نظرة أخيرة فاحصة.

سمعت صوت جدتى يختلط مع مواء قطتى، تردد بوهن "لن أموت غريبة ".

obeikan.com

ورقة لحمة

تطوى شيكارة الأسمنت وتضمها أسفل إبطك المبقع بالعرق. تخلع شالك البنى الممزق وتلف به وسطك الضامر. تدفس فى عبك الصغير ورقة اللحمة. تدس يدك فى سيالتك للمرة العاشرة لعل وعسى تكون غفلت عن بعض القروش. تحاول أن تنسى أنك بددت اليومية بأكملها. زملاؤك المتعاطفون معك توسطوا راجين الريس محروس بابنه الحيلة. قَبِل بعد عناد أن ينقدك نصف يومية الغد. اليوم موسم عاشوراء، والعيد الكبير آخر تاريخ دخولها منزلكم العتيق. رائحة طبيخ الجيران تغتال كل رصيدك من الصبر.

الانتظار ثقيل الدم، وشكايات الأولاد ونظرات الزوجة وصمتها تقض مضجعك. الجوزة الصغيرة وحجر المعسل المكسور زوايا مؤقتة للاختباء.

تتحسسها للمرة المليون، يسعدك طراوتها وأنت تستعجل المسافات، تتمنى أن تمنحك قمرية جناحيها، تطير وتهبط فوق قش السطح المتضائل فى ظلال البنايات المترامية. رفه عن نفسك ببعض الابتسامات .. الليلة لن تتزوي بالمجاز فى ضيق المصطبة المتآكلة من ماء الغسيل، تهش الذباب

obeikan.com

اللحوح عن تسلخات قدميك المقروحتين من الأسمنت والجير، ولن تتحفك الزوجة المصونة بنصيحتها القديمة "يا شيخ اشترى كوزلك يحميك وتريحنى من حمامات الملح كل عشية".

تتظاهر كالعادة بالصمم آثرا السلامة، بعدها يحاصرك السعال حتى تتمنى الاختناق.

الآن تتسلق الرصيف برعونة والقلق يداهمك، تتلفت في كل الزوايا والاتجاهات. تنتظر ظهوره في الأفق البعيد بلهفة انتظارهم لك. قلبك لا يحتمل بمفرده الأخبار الطازجة والعيال يجب أن يشاركوك الفرحة.

ذراع السيمافور يجدد أمنياتك الغائرة.. منفلوط بلد بعيدة وليس بمقدورك أن تعود ماشيا. غامرت وتسوقت بما معك من فضية. تداينت من طوب الأرض وأنت غير نادم .. بكرة تفرج وتتعدل، اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب، ماتت وظلت نصائحها عونا لك؛ عندما تكشر الدنيا فى وجهك أو تتسدد أبواب الرزق جميعها.

-خمسة من الأولاد والمعايش صعبة والناس بتاكل فى بعضها.

-اصبر يا ولدى ياما دقت على الراس طبول، وما فرج إلا بعض ضيق.

تلمحه قادما من بعيد بكبريائه وشموخه، يسوق أمامه قطعانا من الغبار. تتهيأ بكامل جوارحك، يصرخ فى القوم موتورا حتى يفسحوا له الطريق.

obeikan.com

تتقهقر إلى ذيل الرصيف، تهبط على ثلاثة أحجار مخلخلة. تستقبل قدماك الحافيتان أحجارا مدببة وبازلت أسود. تفسح الطريق لنفسك إلى العربة الأخيرة، وعيناك الزائغتان تهبطان على إفريز المؤخرة الضيق.

تلمح عسكري الحراسة يتنمر كقط فى زحمة المحطة، يطارد الصبية السريحة بعصاه الطويلة، ضجيجه ينسكب فى أذنيك مع صوت الباعة فترتفع دقات قلبك. تراوغه وتميل على كومة الزبالة تقلبها، تجمع أكياسا فارغة تدسها فى سيالتك. ستباغته في اللحظة المناسبة.

يتململ بين القضبان وترتج مؤخرته إلى الخلف وإلى الأمام. تسمع صرير احتكاك العجلات بالقضبان، تتصاعد قعقعات العربات الماضية فى كسل وفتور. تتأكد من كمون الشيكارة أسفل إبطك الذى تفوح منه رائحة عرقك النفاذ. تتحسس عبك المنتفخ وتلقم فمك جلبابك البوبلين.

يزيد من اندفاعه وتزيد من لهاثك. يبتعد عن يديك المفرودتين إلى الأمـام. يعاندك بجبروته. تقابله بعناد أكبـر وتسح مـزيدا مـن العرق واللهاث. تستشعر الشيكارة أسفل إبطك وقد ابتلت بأكملها. تأخذ أنفاسك بصعوبة وتشعر بروحك تنسحب من جسدك. تواصل ركضك خلفه بإصرار حتى لا تكاد تشعر ببطن قدميك. تلمس صاج المؤخرة فتتسع دوائر الأمل في شحوب عينيك. تعود وتطفر منهما دموع الإصرار والفشل، الهوة تزداد

obeikan.com

بينك وبينه من جديد. تسمع صوت شهقاتك وتبكى بنبر متهدج كالصغار. تشيعك نظرات المسافرين المتخلفين على الطوار وسباب الحارس الذي غافلته.

الفرحة في عيونهم تجعلك لا تأبه بوخز الزلط المسنون. لا يهم أن تسقط الشيكارة وتطأها أقدامك الغرقى بالعرق والدماء والبازلت الأسود. تشد انتباهك للشال الذى يحزم وسطك والأخذ في الانحلال. اللفة فوق قلبك الوارم تضخ النشاط بشرايينك.

على ناصية الحارة يخرجون بربطة المعلم؛ يزفونك بصياحهم وهتافهم. وجوقة من صبية الحي يستوطن الذباب عيونهم وأنوفهم؛ ينضمون طواعية إلى هذا الموكب الحافل؛ الذى يقودك منتصرا إلى فناء الدار.

تهب زوجتك ملسوعة وتحضر طست الماء النحاس، تدور بقبضتها فى حلقات مجنونة تذيب فصا كبيرا من الملح، تخلل أصابعك بحماس وتسقط بعض الأوساخ العالقة، ثم تنشفها من البلل في طرف جلبابها القديم، وتدهن بزيت الزيتون التهابات الأسمنت والجير دون أن تتبرم.

تتلذذ بسخونة الماء وتعجبك الدغدغة فتغريها بالاستمرار. تسن السكين فى حجر الرحاية، يتطاير منها الشرر والأمنيات. يلتف الصبية حولها شاخصين متلمظين، وتزهر شفتاك اليابستان بابتسامات واثقة.

obeikan.com

تعضد رائحة التقلية وهى تنفلت إلى الحارة، تتسلق نوافذ الجيران وتقتص لك منهم. بعد صلاة العشاء تشمر أكمامك بثقة، ثم تبسمل، وتشد الطبلية فى منتصف المجاز، يتحلق الصغار حولها كفراشات وهم يتلاكزون ببشر. تواظب على عادتك وتطلب فحلا من البصل. ترفع حلة الشوربة فيعوم شاربك على سطحها، تعلق بأطرافه -التى غزاها الشيب- دهون تتخثر عندما تنزل الماعون من فوق فمك. بينما الصغار يتعاركون على مانابهم، ويصر كل منهم أن ماناب أخيه هو الأكبر وأن مانابه فى أغلبه أبيض. تفاجئهم ضاحكا وأنت تخرج بالمغرفة الكبيرة من قلب الحلة الأنجرة ماسورة العظم، تعلوها سحابات البخار الثقيل، قطعا كبيرة يعلق بها قليل من النسير تكفى لفض النزاع وعودة السلام بين الصغار.

تتبادل مع زوجتك نظرات الاستحسان بعد احتواء الموقف. تنهض نشيطة دون أن تخبرها، تسوى قوالح الذرة فوق وابور الجاز الذى يصعد وشيشا تستعذبه الليلة، تغير ماء الجوزة، تجده دائما أزيد من المطلوب، تنفخ في طرف الغابة لتبول الفائض من المياه وتضبط إيقاعها. تحرق حجر التعميرة فوق جمر القوالح وتنتقى حصية صغيرة تغطيها بقلنسوة من التبغ، تسخن سيخ الحديد النص لينة حتى يحمر؛ ثم تدفسه في تجويف الغابة؛ يصعد هسيسه المعتاد وخيطا من بخار.

تفاجأ بها أمامك بعد أن تنفث خمسة أحجار كاملة. ترتدى القميص النوم البمبى الحرير الذى يتماهى مع لون بشرتها. تنزلق فى بروز نهديها الوافرين وتعجبك تفاصيل الجسد الممشوق وكأنك تراه للمرة الأولى. يستحوذ على منخارك عرفها الطيب. يلسعك الصهج، تنفخ في فوهة زجاجة اللمبة النمرة عشرة الملطخة بالهباب، تهطل عيناك من الدخان. يداهمك نور القمر المتسلل من كوة أعلى الجدار. تخبرك في دلال بلسان يمسكه الحياء عن نوم الصغار!!

تقبض على ساعدها البض فى استماتة.. تتمنع فى دلال وتحاول الإفلات منك... تنفلت قبضتك من عامود الإفريز البارد، تهوى على وجهك مثخنا بالجراح. يبتعد القطار بغروره مخلفا سحابة ثقيلة من الغبار واليأس. يزوم بشدة وكأنه يسخر منك أو يسبك. تجلس بين القضبان تلتقط أنفاسك بصعوبة، تميل بخدك على كفك المليئة بالحراشيف، قدماك تتمددان أمامك غرقى بالزفت والدماء، تتحسس عبك وتتشمم رائحة اللفافة وقد بدأت تنتن.

تخلع جلبابك وتلبسه مقلوبا. تخفى وجهك خلف شراشيب شالك البنى الممزق. تنسحب إلى آخر الرصيف وعيناك على الحارس المتنمر. تنتظر وتنتظر حتى يتحرك ذراع السيمافور وتعاود المحاولة من جديد..

حامل البقجة

كنت صغيرا. ومازلت حتى تلك اللحظة أستمتع لمجيئه ويعبئني غيابه بالحنين. أصداء صوته الأجش توافيني من بعيد، تدغدغ حواسي، تملأ سماوات خيالي بالأسئلة. تنهض داخلي وتلقى غطاءها سنوات من الدفء والألم. أهرع إلى الخارج، أستقبله بشارب قد خط، وتقاطيع تحمل خارطة لطفولة آخذة في الأفول.

اعتاد أن يختفي أسابيع طويلة، ربما امتدت إلى شهور كاملة. لا أحد يسأل عنه لماذا غاب؟ ولماذا أتى؟ وكأنه طبيعي أن يغيب وطبيعي أن يأتي متى يحلو له. مثل الليل والنهار، والصيف والشتاء في تعاقبهما. نعرفه بحنجرته القوية وصياحه المنغم الممطوط على بضاعته:

- طرح الصبايا الملاح والمناديل أم آوية يا بنات.

تنشد أمي لندائه وتستجيب بآلية، وهى التي سلخت خمسين خريفا من عمرها، ولا ينطبق عليها النداء. يخصها دون الأخريات بابتسامة دافئة ودودة؛ ينتزعها من وجهه الذي تبك منه الحمرة والبراءة، وأمي بدورها

obeikan.com

اعتادت الدفاع عنه ضد هجوم إحداهن وهى تناوره بتهمه الطمع والمغالاة.

- يا شيخة ده حتى راجل فقير ومنكسر.

يعبر بجسده اللحيم قنطرة المياه المليئة بالإوزات السابحة، فريق من الصبية البلابيص يضربون المياه عن عمد؛ فتتناثر على ملابسه رشاشات الرزاز. يتفادى الانزلاق في روث الجاموسة؛ المتصدرة كجبل صدر الفناء الضيق. ينهج وهو يعتلى كومة السباخ ويهبط إلى عتبة الدار. يحتك ظهره في شجرة الخروع السامقة.

يلتقط أنفاسه وهو يزيح البقجة من أعلى تقويسة كتفه. ينحني يمسح عرقه في ذيل جلبابه. يتبدى سرواله التحتاني ويقرقع الصغار بالضحكات لأن عورته تبرز من فتق كبير فيه. أملاح جسمه رسمت في زرقة جلبابه المكرمش خطوطا كالحة بادية للعيان، المنديل الذي يعصره بين الفينة والأخرى يحمى ياقة جلبابه من العرق والغبار .

يفترش مدخل المجاز وهو يطلق تنهيدة حارة، ينزلق نصفه الأيسر يخترق عتبة الدار. يتجاهل تحذيرات أمي بأن رجل البيت ليس موجودا. اعتاد أن يخرق حرمة البيوت دون سابق استئذان، واعتاد الرجال بدورهم على رؤيته، مقرين هذا الاختراق.

يفرد قدميه المشعرتين بحرية، ينزلق من تشققات قدميه مركوبه

openkan.com

المهترىء، وتنداح رائحة عفونة من بين أصابع قدميه الموحلتين. يوسد البقجة المنبعجة بياض فخذيه، ويضع فوقها المتر الخشبى. يهتف وهو منهمك في حل العقدة التي (تعصلج) معه كالمعتاد:

-البضاعة هذه المرة عال العال.

تجيبه أمى تفتح باب المساومة مبكرا، وهى التي لم تشاهد بضاعته المرة السابقة لسفرها حتى تعقد المقارنة.

-كل مرة يا راجل بتقول كده.

تنحل العقدة بعد محاولات فاشلة. يعتلى الحماس تضاريس وجهه الطفولى الذي لا يشيخ. يفك قمم الأكياس الشفافة فتتناثر البضاعة في جوف البقجة.

-دى بقجة يا راجل ولا جراب الحاوي.

دائما ما يجيبها بابتسامة محايدة، ودائما ما تتحفه أمي بنفس عبارتها الهازئة، وهى تلمح الطرح والمناديل والجوارب وقمصان النوم والجلابيب الدمور والدبلان، حتى زجاجات المسك الحجازى والسواك وعلب لبن الأطفال وحنوط الموتى. يجيبها بجدية أن بقجته مثل الدنيا تنطوي على كثير من الأشياء، فقط قليل من الناس الذين يستطيعون حل عقدتها.

يغلق على النسوة كل أبواب المساومة عندما يقول بحسم:

-المرة دى غير كل المرات. البضاعة من بلاد بره.

تضيع من ذاكرته أنه ردد هذه العبارة الحماسية في زيارته الأخيرة، وربما في كل زياراته السابقة، بل ينسى الملصق الموجود على ياقة البضائع يشير أنها مصنوعة بمدينة المحلة الكبرى. مع ذلك تتشجع أمي وتتقاطر النسوة اللاتي مكثن برهات يقيمن البضاعة من بعيد، وكأنهن وحوش كاسرة أو جوارح تتهيب للانقضاض.

وبعد فاصل طويل من الفصال والايمانات المغلظة؛ تشترى أمي طرحة مشغولة بالترتر وصندل صغير لأختي، وحك نشوق وكيس دخان تومباك لأبى.

تنقده بضعة من قروش، تخبره أنها كل ما تملك الآن وستنفحه الباقي على أقساط بطيئة فى المرات القادمة.

يحتضن النقود براحته المتندية دون تذمر على ملامحه. يتحسس ملمسها ثم يدقق فيها بعينيه الرمداوتين قليلا، وكأن حواراً صامتاً يدور بينهما. يُقبل القطع المعدنية ويمررهما على جبهته ورأسه شاكرا، وفى الخطوة الأخيرة تتهاوى برنين مسموع إلى قعر سيالته.

وقد تمنحه امرأة قدراً ضئيلاً من دين قديم، تشفعه بضحكة غنجة تجعله يتسامح معها، وربما تستبدل إحداهن النقود ببضعة بيضات أو دجاجة ناحلة أو حفان من الغلال.

عرفناه بطقوس خاصة في البيع لا يتقنها غيره. يقسم والزبد يندفع من شدقيه كشلال، إن هذا الثمن الذي أقرته هو ثمن البضاعة لا أكثر ولا أقل، ولا مكسب له البتة. تجابهه أمى بطقوس مضادة من الفصال والمحاورة لا تكل فيها ولا تمل. تشتبك معه في معركة لا تود فيها الخسارة. وأحسب لو أنه قرر أن يوزع بضائعه على أمي والنسوة مجانا ما انثنين عن الفصال و المساومة، وفى النهاية يستسلم منكسا رأسه بنبر خفيض يتصنع الانكسار ومقرا بالهزيمة:

-والله وقعت علىّ بالخسار. ده خراب مستعجل.

ومن تكرار الموقف على مرأى منى ومسمع؛ جعلني أتساءل في دهشة : لماذا يبيع الرجل بضاعته دائما بالخسارة؟

وبعد إتمام الصفقة التي يبدو أنها لم تكن جل مراده وبغيته في حيينا النائي، يحدج أمي بنظرات تعرفها، ويقول بخبث يستدرجها إلى عادتها القديمة معه وقد أوشكت أن تنساها من طول الغياب:

-ملقاش عندك كوباية شاى صعيدى أعمر بها راسى .

obeikan.com

يصمت، يطأطئ، يخشى أن تحرمه من بعض ما اعتادت، يردف بصوت كالأنين وهو يشير إليّ:

-وكمان وحياة المحروس رغيف ملدن لأحسن الزاد منزلش بطنى من وش الصبح.

تشد أمي الطبلية الخشبية بمنتصف المجاز. تنضد عليها طبق المورته وطبق آخر للجبنة القديمة؛ الغارقة ببياضها في عصارة السلطة وقليل من الشرائح الطافية. بفناء المنزل ترتفع سعلات أمي تقاوم الدخان المنبعث من فخذى الكانون، وغطاء براد الشاى الذى فقد زرقته من لون السخام يطقطق من أثر الغليان.

يأكل بنهم ثم يمسح فمه ويديه بطرف جلبابه ويحمد الله، يرشف الشاي الحبر ببطء ويرسل تأوهات الاستحسان عالية. يُقبل ظهر راحته وينهض منتعلاً مركوبه الممزق وقد انتهت مهمته في حينا إلى هذا الحد.

يبسمل ويحزم بقجته، يطرحها على ظهره المقوس وهو يتوجع ويستغيث بالمولى من ثقل الحمولة "يا معين"، ثم يمضى كالطيف أو الأثير. يجتاز الدروب والمنعطفات ويتغيب بين أزيز صفين من أشجار الجازورين. توافينا صيحاته الحماسية ونبره الأجش وهو يجتهد في تنغيمه ممتدحا بضائعه، لا ينثني عن جعيره كلما ضمه هذا الخلاء اللامحدود المقفر من البشر.

اليوم والرقعة الخضراء قد تقلصت، أسمع صوته، فأركض إليه وأنا الفتى اليافع تجذبني العادة. نسيت أنني كبرت ونسى هو بنداءاته المتكررة أن سيدة الدار قد رحلت إلى الرقعة الصفراء. طال غيابه وطال التغيير كل شئ في الحي تقريبا.

يتابع نداءاته في إصرار، وأهدابه مشدودتان إلى باب دارنا الواطئ بعدما ارتفعت أتربة الطريق ودهست كبريائه الزائف. يقنع نفسه أن شيئا مازال موجودا لم تمسه رياح القدر. ينتظرها أن تفزع إليه بعودها الذابل وروحها التي تنشع بالحياة، تساومه، تعاتبه، تنهره وتلكزه وتتهمه بالكذب والخداع، يتخاصمان ويتصالحان في نفس واحد، وأخيرا تغدق عليه من سخائها المعتاد.

تسمرت لصق شجرة الخروع؛ الوحيدة التي لم تتغير بأشواكها، أتشمم فيه رائحة ماضٍ جميل؛ وعطر يتسرب في روحي يدغدغها بالألم.

تخرج زوجة أبى وتهب عاصفة من غبار. أغمض جفني أتفاداها. يرتفع أزيز صفى الجازورين وينداح في رأسي كالصراخ. تفرك عينيها وهى التي استيقظت من النوم على صوت جعيره كما تقول. تطالعه بشراسة قطة غاضبة تتأهب للانقضاض. يتسمر فوق القنطرة لا يعبرها ولا يتراجع، وكأنه يتأمل كل ملامح التغيير. بقع من الوحل لا تسبح فيها سوى الضفادع

الصغيرة؛ هذا ما تبقى من الترعة الصغيرة. تجول عيناه المزرورتان ببطء في عتمة المجاز. الطبلية مشطورة نصفين، وصينية من نحاس، تحمل الطعام إلى فراش أبى مرات ثلاث، وبقعة قديمة من رماد تتوسط الجدار، كان يقرفص بها الكانون بقائمين من الطوب اللبن مثل طفل يغوط .

تصفق الباب في وجهه وهى تزمجر كلبوءة تحذره من تكرار النداءات. أقف معبأ بالذكريات، يجمعني معه خواء الفناء وعويل الرياح، وأشواك شجرة الخروع التى عبث بها الخريف، وحوار قديم صامت يتبادله معي على استحياء.

يعود أدراجـه بعد أن يشملني بنظرة طويلة تحمل حزنا دفينا. تبتلعه البنايات والحقول والخلوات. لا يعبأ لصيحات النسوة في استبقائه بالحى، وهمهماتهن ومصمصات شفاههن تهاجمه من الخلف:

-شوف الراجل عامل مش سامع وسايق فى دلاله..

تغيب عن الجميع الحقيقة التي لا يعرفها سوانا، تشاطرنا معها جبال من الحزن. أمكث مكاني خلف بيت مهجور، وأب قد قامر بكل رصيده من الذكريات، وأم لن تثوب تسكن هذا القوس الملبد بالغبار والرمال. يوافيني صوته الضعيف -الذي لم أعد أسمعه أجشا- يتناوح مع صوت الرياح بوهن، ينادى على بضاعته تلك المرة دون حماس.

بين قوسين

اعتدت أن أقطع تلك البقعة الصفراء كل يوم. يدهشني كونها تنحصر بين شريطين، أحدهما أخضر يمثل الوادي والآخر من البازلت الأسود يمثل طريق الوادي أيضا.

أستقل السيارة الأجرة التي تحملني إلى مدرستي بقرية بنى عدى، وهى تنفث خلفها ضجيجا ودخانا وحشرجات مكتومة.

أراه يستظل بشجرة التوت العتيقة، التي غاب خضارها وتماهت مع لون الرمال، بينما الشمس تريل كطفل لعابها الدافئ، والرياح النشطة تزيح أوراق الشجر والأتربة بمحاذاة حيطان المقابر، وكأنها تخشى خروج الموتى وتواصل الردم عليهم!!

ينشغل بتلقيم راكية النار بمزيد من الحطب، والبراد الصغير يقذف حمم الدخان الملتهب، بين الحين والآخر ينثنى ويستقم ويطوح ببعض الأحجار الصغيرة والغمغمات، يبعد الكلاب الضالة عن بقايا إفطاره القابع في قعر صرة المنديل.

يلوح كشبح واهن بسرواله الواسع ذى الدكة الطويلة المترجرجة أسفل

obeikan.com

فخذيه، تستر نصفه العلوي فانلة بنية كالحة، وصديرى ممزق لم تتبق منه سوى بطانته الدمور.

أواجهه واجفا وأنا أجرجر خجلي وخوفي. يبتسم ليّ ابتسامات أجرتها علينا العادة فيزداد خوفى، أبتسم له على استحياء دون أن أنبس، وأمضى لا ألوى على شئ. يوافيني صوت نباح الكلاب الضالة وهى تطاردني، وصوته الخشن وهو يدفعها عن طريقي بحماس.

كل يوم أقابله على هذه الشاكلة دون تغيير ملحوظ، وكأنه قد علم بموعدي فأضحى ينتظرني ويودعني كل صباح، مكتفيا منى بتلك الابتسامات الباهتة الخجولة.

في أول الأمر كنت أهابه وأتجنب لقائه. ربما لمظهره المتوحش والمتكرر في رتابة. لم أره يغير سرواله الذى اصفر من القدم، وفانلته الممزقة عند الكتفين ويبرز منها جلد ميت قاتم اللون، ربما من كثرة حمل غلق التراب أو ذراع خشبة الموتى، وشعره المهوش الملبد بالغبار الذى تماهى مع لون الصحراء النحاسية.

هذا الرجل الواهن العضلات -بملامحه الباهتة من أثر الشقاء- يحتل موقعا حيويا على خارطة ذاكرتي المشوشة. رأيته أول مرة ونحن نلحد جدي لأمى، ورأيته للمرة الثانية قبل موت بقرة إسماعيل الزينى، تلك التي كان

obeikan.com

يجرها من خطمها ويتسلق المقابر بها والقمر في محاق، ونتبعه نحن معشر الصبية، مهللين خلفه، ومنغمين، ومرددين معه في عبث لطيف " السمين السمين .. " ، وأعود واسأل أمى فتجيب فضولي ضاحكة على نحافتي "حتى يخضر ضرعها من جديد وترمى لحما كثيرا".

ربما رأيته للمرة الثالثة أو الرابعة، ولا أعرف بالضبط عندما لحدنا من من أقاربي؟ كل ما أذكره أننى أراه كثيراً ولا أشعر بالارتياح لرؤياه.

وبالقرب من الطريق المسفلت تنهض سقيفة معرشة بجريد النخيل الجاف، الذي يستخدمه زوار الأضرحة يوم الطلعة لجلب الرحمة لذويهم. تنكمش فيها كضفدعة زوجته الحاجة نفيسة، تنبعج وتنكمش وهى تعجن الطين بالتبن وتصبه فى قالب خشبي، ثم تمسح فوقه براحتها المبتلة، وتعدها لبناية الأضرحة الجديدة. لا تخفى الجوزة وهى تنفخ في غابتها الصغيرة وتنشق دخانها أويقات الراحة.

في مرة تخلى الرجل عن ابتسامته وصمته، ودنا منى ودعاني إلى كوب من الشاي. قبلت كارها وأنا أوارى خجلي وقلقي منه. مضى بي إلى أسفل شجرة التوت ووجيب قلبى يتسارع، دفس البراد في قلب الجمر الملتهب ورفعه عدة مرات يتجنب الفوران، صب ليّ كوبا من الشاي بعد أن غسل كوبي بعناية فائقة، دون أن يهتم بغسل كوبه الذي اعتاده على اتساخه، ويرى أن غسيله

قد يفسد طعم الشاي به. قنع بصمتي، مكتفياً منى بحضور قد يجرح وحدته ويستشعر به قليلاً من الأنس، وإن لم يدر بيننا حوار.

تنهد ونظرته الذاهلة الباحثة عن لاشئ تجول بين شواهد القبور كفأر قد تملكته الحيرة. أخبرني واجداً حزيناً :

-الناس يتجنبوننى مثل كلب أجرب ؟ عموما لست أنا السبب بالتأكيد هم يعلمون ذلك جيدا. أشارك في تكريمهم موتى ويسرفون في إهانتى أحياء.

يميل يحتسى ما تبقى من الشاي ببطء، ويستحلب من طرف الكوب التفل العالق به، يدقق في الأفق البعيد وشفتاه تنفرجان وتنطبقان وكأنه يناجى شيئا مجهولا، ينزاح إلى الوراء متنهداً فتبدو عليه علائم الكبر وكأنه قد شاخ فجأة، ويضيف بلهجة آسيانة :

- كل شيء له نهاية حتى العمر ..

طأطأ رأسه مفكرا، شرد بذهنه، راح يسرد حكاية تلك المرأة البيضاء، التي أتته متنكرة في ملاءتها والغروب يلقى بظلاله الكئيبة، تبكى بكاءً مريراً، ورجته والدموع تبلل سواد ملابسها أن يستخرج لها جثة طفل تخطو عليها سبع خطوات !

ومكثت تردد منتحبة ومستغيثة "زوجي سوف يطلقني .."

obeikan.com

حاول أن يثنيها، خرت على قدميه تقبلهما وهى تلهث، واصلت تزلفها. ضعف أمام إلحاحها ونشيجها، شعر بدموعه القريبة ساخنة تحت جفونه. تقدم بمعوله وقدماه لا تحملانه، تلفت يمينا ويسارا، توقف يستغفر الله .. صمت وبدا عليه التأثر، مسح دمعة فرت من عينيه بطرف الفانلة التي كرمشها العرق والتراب. عاد يقول بعينين منطفئتين :

- لن أنسى الطفل وحفرتا عينيه الغاصتين بالدود والتراب تشملاني بنظرات عاتبة. لن أنساها ما حييت ولن أكرر تلك الفعلة الشنعاء أبدا.

شدني من يدي وهو صامت، نظرت له متسائلاً، شد على معصمي مشجعاً، وعيناه ترجواني أن أتبعه. سار بىّ إلى حفرة صغيرة ملفوفة بنبات الصبار، وقال بنبر واعظ :

- أعرف أن الدنيا لا تدوم لأحد والناس لا يحبونني لذا أعددت حفرتي بنفسي.

ثم دقق في وجهي وكأنه يتابع ردة فعلى وأردف :

-غريبة أن يحفر الإنسان لنفسه تربة وهو مازال على قيد الحياة. لكن الناس قد انشغلوا حتى عن ذويهم. مع كل نعش تصدمنى عيون باكية وجلابيب ممزقة ورءوس معفرة بالتراب، وبعد أن يوارى الميت ويستريح فى حفرته الأبدية، وينفض السامر، كل يمضى إلى حال سبيله وربما واعد

بعضهم امرأة ساقطة فلا يؤجل الميعاد .

ودعني بعبارات صامتة تأتلق في مقلتيه، وشدد علىّ وألح أن أكرر زيارتى- ربما هى وحدها التى تشعره بأنه مازال حيا- ، وعلى طرف لسانه سؤال لم يسأله "لماذا الناس لا يحبونني ؟ "

جرجرت قدماى أفكر في أمر هذا الرجل، الذي تنحصر حياته وأحلامه بين بقعتين عامرتين، بينما استعذب هو تلك البقعة القاحلة. كل يوم أمضى في طريقي، أراه بنظرات دهشة يقفز بين البقعتين بعوده الناحل يزرع فيهما الحياة، بل يتقلص ليكون هو الحياة الوحيدة في تلك البقعة المهجورة، يطمئن على حفرته كما يطمئن شاب يافع فى مقتبل العمر على مستقبله، يخرج منها ما سفته الرياح أو نبشته الكلاب في بطنها، ويعيدها إلى سابق عهدها. يروى الصبارات التي تشعبت وعلت أوراقها البنفسجية المدببة، ويوزع براحته رشاشات المياه، يقاوم تململ الرمال وانزلاقها إلى بطن الحفرة. في كل مرة يلمحنى فيها يتحفني بابتسامته القديمة، فأجاوبه -وأنا ألمح الشاهد الرخامى محفورا عليه اسمه دون تاريخ- بابتسامة جديدة قد زايلها الخجل ..

بقرة أبو حتة

أنـزل حمولة البرسيم من فوق كتفه. نزع عقدة الحبل المجدول حديثا فانفرطت الحزمة. فاحت رائحتها وسبقته إليها. سمع خوارها ونطحها المتواصل للمزود. التقط أنفاسه بصعوبة. الشمس قد اعتلت تحويطة البوص وراحت تبخ صهدها. حرارتها تحرق جبهته النازة بالعرق. ولج الخص ليسوقها أمامه. سيغمسها فى مياه الترعة القريبة حتى تتخلص من أدرانها ويبلل قدميه.

انحنى أسفل مربطها يفك وثاقها. مالت إلى إحدى الزوايا نافرة منه. اقترب منها وراح يمسح ذيلها بنعومة. دققت فى وجهه بعينيها الجاحظتين. نطت مهتاجة إلى الأمام وإلى الخلف حتى كادت تبلغ السقف ورفسته فى صدره. انكفأ على وجهه وانغرس فى الروث المختمر. سيبيع كل ما تصنعه زوجته من الجبن والزبد فى السوق القادم ويصير معه مال كثير. انخلع الوتد وتشرخ وجه الأرض. استمات على مقودها. سحبته خلفها. كنست الزريبة بجلبابه القديم. جرحت خشونة الأرض سمار جلده. خرت الدماء من صدغه الأيمن وامتزجت بالعفار. انفلت الزمام من يده رغما عنه.

obeikan.com

سيحافظ على حصيلة البيع من لصوص السوق. انطلقت كالريح نحو باب الخص.

نهض بصعوبة وهو ينهج. مسك صدره. شعر وكأن شوكة ضخمة انغرست بين ضلوعة. عذرها بأنها غريبة ومازالت تهاب المكان. سيُذكر زوجته أن تدخر شيئا مما تصنعه لطعام الأولاد. لمحها تعبر متعثرة حقل جاره دردیری أبو حنك. حزم وسطه بجلبابه وشد وثاقه. تبعها بقدميه السمراوين الناحلتين. سيخرج حق الفقراء ويتصدق على جيرانه. ضربت طيور أبو قردان الهواء بأجنحتها، تناثرت -فى فرار جماعى- مثل ندف القطن فوق أقرب شجرة نخيل. غاص فى الأرض اللينة حتى الركب. مضى ينتعل مركوبا من الطين. لم ينتبه لجاره اللدود وهو ممدد أسفل شجرة الجميز. لا يمكن أن يستعين به على اللحاق بها. بالأمس فقط تعاركا على أسبقية الرى.

تطأ الرباط المدلى من رقبتها. تتعثر . تبطئ من سيرها. سيلحق بها ويقبض على مقودها ويعيدها إلى الزريبة وينتهى الامر سريعا.

زوجة دردیری تحمل صينية الطعام المغطاة بقطعة شاش أبيض وتعبر القناة. تنحنى باسمة توقظ زوجها النائم أسفل (ضليلة) شجرة الجميز.

يصيح : امسك يا جدع.

ترمقه يهرب. تصيح بالصوت الحيانى وهى تهيل التراب فوق رأسها : الحقونى الراجل قاطع النفس ...

الأقدام الحافية تتجمع من الأخصاص وعند رءوس الغيطان تستطلع الأمر. الحاضر يعلن الغائب بأن أبو حتة قتل جاره دردير فى عز الظهر لخلافهما على نوبة الرى!!

تبطئ فى سيرها. تهز رأسها متململة. ترفع خطمها إلى السماء وكأنها تشكو. تخور بتوحش. تتخلص بإلحاح من وثاقها. تنحرف ناحية حديقة الرمان. تفر جوقة العصافير من فوق الأفرع القريبة. تختفى فى كثافة الأشجار. يرفع قدميه وينزلهما بصعوبة. الأشواك مثل الإبر وقد نسى مركوبه. تنغرس ناموسة فى جفونه كقرن شطة. يتوقف يفركها بخشونة. سمسار السوق أخبره أنه لا يوجد مثيل لها فى هذا السوق. ينتبه إلى الضجيج والصوات الذى يأتي من خلفه. يبسمل ويقول فى حال نفسه، اللهم اجعله خير.

يتابع عدوه. الأفرع الجافة تشبك فى جلبابه. يتمزق جيبه أعلى الصدر وتسقط منه حبات السمسم. من السوق القادم سيشترى لنفسه جلباباً وشالاً جديداً وبلغة.

يركل باب الزريبة بقدمه. يرمق زوجته وهى تحنن ضرعها. كم جرت أناملها

الرقيقة على ظهره وكان فيها شفاؤه. تعصر برقة ثديها. ينسال شخبوب طويل فى قاع (الشالية) بصوت يستعذبه. ذرات البخار الخفيف تتكسف فوق وجنتيها، فتزدادان احمراراً ولمعاناً وإبهاراً. يدنو منها مبتسماً. تمد له الشالية. يدفن فيها وجهه. يكرع ويتجشأ ثم يعيدها إليها وبأنفه المقوس تعلق نقطة بيضاء. تشرب حتى ترتوى وتمنح الأولاد، كل حسب دوره.

ينكفئ على وجهه فى نقرة عميقة. يغرق فى الماء الآسن. بعد أن يبيع ويكسب سيستعيد مصاغ زوجته المرهون.

يترك الأشجار والجرون والمساطيح ومساحات الخضار، ويلج الأزقة والحارات الضيقة والدور الواطئة المعروشة بالجريد والطين.

الكلاب تستقبلها بنباحها وتقافزها. تنزلق من بين الدور. تنحرف يمينا ويسارا تتفادى الأذرع المفرودة تطوعا لإيقافها. تدوس مقارص العجين المختمر أمام دار شيخ البلد. جوقة الأطفال (تزيط) وتهلل وراءها. ينهض ويتابع سيره بعيون محتقنة ككاسات الدم. لا يعبأ بعويل زوجة شيخ البلد وسبابها. يخفف عن نفسه ويردد "لساها جديدة وهايبة المكان" .

تترك الضيق والبيوت المتكاتفة وتخرج للبراح، تستقبلها الترعة ووابور الطحين، تعبر قنطرة المصرف الشرقى. تخرج إلى الجسر العمومى. تركب الإسفلت. يشوى السخام قدميه الحافيتين. يخشى عليها من

obeikan.com

السيارات المارقة. لو خبطتها إحداها للقت حتفها للتو.

يواصل لهاثه بكل حماس. يعبر كمين نصبه رجال الشرطة لأحد تجار الكِيف. يستوقفه أحد الأمناء الذى يختفى فى جلباب بلدى. لا يعبأ به ويواصل سعيه خلفها. صفارات الإنذار وطلقات الأعيرة تحجب عنه صوت جلبة الحشود التى تعدو خلفه، لا ينفك ينضم إليهم آخرون.

تميل البقرة نحو مزلقان السكة الحديد وتجأر بقوة. الحاجز الحديدى المصلوب بطول الطريق وذراع السيمافور وطنين جهاز التحذير يربكون تقدمها. صوت الوحش المعدنى يصرخ فى بوق السماء. البقرة تواصل عدوها فى رعونة. أبو حتة يحلق على القطار بذراعيه المفرودتين يريد أن يوقفه. يزعق فى السائق ويزعق السائق فيه:

- حاسب يا أخينا.

صوت احتكاك عجلات القطار بالقضيب، والصرخات تشق قلب السكون.

فى الصباح نشرت الجرائد مانشيت طويل .. أبو حتة قاتل وتاجر كِيف، يتسبب فى اصطدام قطارين بالعياط وخروجهما عن قضبانهما ومقتل العشرات..

أمام المحقق وقف مرتعدا-يفكر فى السوق الذى سيفوته- يردد فى رعونة:

- لساها يا بيه جديدة وهايبة المكان ...

obeikan.com

عامود الإنارة

يجوس في السوق كنحلة حتى يعييه المسير. يعتمد بذراعه إلى عامود الإنارة المكسور، يميل عليه بخده يتحسس نعومته التي تشبه قلوب الأمهات. تهب عاصفة ترابية تبتلع السوق عن بكرة أبيه.

تشف الرؤية ويلمح المارة من خلف قلبه الصلد. النساء متشحات بالسواد وأطفالهن موزعون بين أحضانهن وأطراف جلابيبهن. الابتسامات على الوجوه والأكياس المنبعجة فى الأيدي تتأرجح تنبئ عن سوق رائجة. يقف بجوار بائعة الملوحة بجلبابه القديم المتآكل ورأسه المضلع الحليق بالماكينة والملئ بالنتوءات ، يملأ خياشيمه برائحتها الزاعقة. ينحرف ببصره يلمح أمه ويداها المعروقتان مشدودتان باستماتة على قفة العيش الناشف.

- حرك نفسك يا ممدوح. الشمس سخنت والسوق قرب ينفض.

يتقافز أمامها فى رشاقة حصان صغير. يستخفه الفرح وتخدر شعوره الأمنيات؛ التي تنزع إلى التحقق يوم الأحد من كل أسبوع .

obeikan.com

يجتازان بصعوبة بالغة بحراً متلاطماً من البشر والبهائم والطيور، ينفذان إلى المكان المنشود. يمطرهم الصيف الحارق بسيال من الغبار والعرق اللزج. تصك آذانهم ألوان الفصال والحلفان "الله يباركلك، والذمة والديانة واقعة علىّ بالخسارة، يحنن لسه مجبتش تمنها ... "

برع مثل أمه تماما فى الإلمام بكل طرق المساومة ومهارة السماسرة في التقاط السلع والتسبب فيها والإيقاع بالزبائن .

تتورك حشيتها القديمة وتضع القفة أمامها، تريح ظهرها إلى الجدار القديم المليط بالطين، تحذره من العقارب التي تختبئ بالشقوق. تنزع عن القفة الخرقة القديمة، يسعدها منظرها وهى (مزربة) بالعيش الذي اجتهدت في جمعه على مدار أسبوع بأكمله. تميل على جارة لها تسوق بعض الأحاديث التافهة حتى تفرج. تستعيد انتباهها عندما ينحرف نحوها تاجر مواشي تعرفه جيدا.

-بكام يا ست الستات؟

لا ترتاح لنظراته الفاحصة التى تثقب ملابسها السميكة. عيناه الماكرتان وحركة حواجبه لا تنبئ بالشراء. يستشعر نفورها منه. يقلب في القفة كخبير، ويستعير تعابير وجهه الممتعضة ويقحمها فى تحديد الثمن!

-تلاتة بس دى حتى كلها عيش مصوف.

obeikan.com

تشير بأصابعها رافضة. وتثني تحتضنها وكأنها ضناها ينتزع من أحضانها عنوة. تكبش حفنة كبيرة من قلبها وترتفع بها إلى القمة تعيد إليها طزاجتها. يتكور بجوارها على فص الطوب الأحمر، يتنمر بعيونه الضيقة -كأرنب برى- على الرائح والغادي. تختلج حواسه مع كل ساق أو أطراف جلباب تقترب من القفة أو رأس تعاينها من بعيد. يتململ بجوارها، يحاول أن يتملص منها، السوق غنى بالغنائم الباردة وحبات الفاكهة الطائشة من أصحابها. تستعيده بقبضتها الراجفة وتصرخ فيه:

-مش عاوزة أفقدك زى أبوك.

يحدق في الرجل الطويل النخلة وهو يقترب من أمه ويسترق السمع إليها بعذوبة وكأنه تلميذ في مدرسة:

-اللي يجى منك بركة .

- باين عليك غلبانة وبتجرى على يتامى .. ستة كفاية.

-حلال عليك.

تطير من الفرح، ترفع القفة بصعوبة تلقمها فم الجوال الواسع، قبل أن يتراجع الرجل في رأيه. يعينها بقامته الواطئة في فتح فم الجوال (المكشكش) بدبارة مخيطة به. تقف قبالته وبعينيها الرماديتين ابتسامة

obeikan.com

مدخرة، يولى نحوها يسألها بدون كلمات والذباب يهف على وجهه الشاحب. تدخر الإجابات حتى اللحظة المناسبة. لحظة من التوحد اعتاداها، لا يحتاجان فيها إلى الكلمات. وفى النهاية تشده إلى أحضانها وتميل تقبله وتربت على ظهره. تنطلق به إلى سوق الفاكهة تفاصل فى (شروة) برتقال وتزن نصف كيلو موز تعرف أنه يحبه موت. تشترى قرطاس الملوحة الصعيدي ولا تنسى حلاوة قمع العسل. تضيف إلى الوعود وعودا جديدة. تشترى الجبنة القريش لزوم (تتقيل) بلاص المش، و(خضة) زبدة تقدحها على النار وتصنع منها السمنة البلدي.

تدخر له المفاجأة الكبرى أنها اشترت له أمعاء ذبيحة، ستصنع له منبارا ولماليما يحبها كثيرا، يكورها فى فمه حتى تحتبس أنفاسه، بينما تصرخ فيه ملتاثة "على مهلك أنت بتأكل في آخر زادك".

تهب عاصفة من تراب السوق... تشف الرؤية ولا يجدها بجواره. ينتبه إلى جيوبه وراحتيه الخاويتين من الحلوى وثمار الفاكهة. تلسعه سخونة عامود الإنارة الذي فقد طراوته وصار لا يشبه بنعومته قط قلوب الأمهات!

تتكسر أصوات متباينة من الخوار والنهيق والمأمأة والقأقأة وهى تبتعد وتتلاشى شيئا فشيئا. يفاجأ بالسوق وقد فرغ من رواده، اللهم إلا بعض القطط والكلاب الضالة، وسراب هلامى يلمع بعرض الطريق المقفر.

ينصرف كسير النفس خالي الوفاض تخنقه العبرات، وصوت أمه الحنون ينداح في أذنه "اجرى بسرعة الشمس سخنت والسوق قرب ينفض". تنحسر أمنياته العظيمة فى الانتظار إلى يوم السوق القادم، كى يقف وحيدا يراقب عملية البيع والشراء، يتأبط رطوبة عمود الإنارة ويجتر ذكرياته القديمة معها..

opeikan.com

بندقية أبو ستة

يمسك الفأس بأصابع قبضته الستة التى شهرته بين رجال النجع، يرتفع به ويهوي على الأرض التى ترتج وتتشقق، يوغل فى الحفر، يمسح خيط العرق الموحل الناز على جبهته، يوغل ويوغل، يجذب من قلب الحفرة خرقة كبيرة منبعجة، يضمها فوق حجره لا يبالى برائحتها العطنة، يتشممها بوّله العاشق، يفك لفائفها ولفائف قلبه المتوتر تنحل بسرعة، يبرق أول جزء ينكشف عنه الغطاء، يسارع فى حل اللفائف المتبقية، يضمها إلى صدره العارى، يُقبلها، يمضى بها إلى قاعة نومه وهو يتلفت يمينا ويسارا، يخرج من أسفل السرير المزيتة النحاس، يغمس بها قطعة القماش ويخرجها مبللة، تقطر فوق جلبابه، يمررها على الأجزاء الحساسة برفق.

اعتاد على الهججان أيام الأذرة، يصاحب الليل فى سكونه وخرسه، ينق مع ضفادعه، ويفك عنه بعض غموضه. يقتفى أثره، يعثر عليه بوجهه المسحوب، ولبدته الطويلة ومعطفه الكالح الذى يختبئ فيه صيفاً وشتاءً. بلغته الغارقة فى الوحل تثقل خطواته، يغريه بلفافة تبغ، يتطوع بإشعالها، يطيل معه حبل الكلام إلى ما شاء الله، وعيناه تتطلعان إلى العالقة فى

obeikan.com

كتفه. يغريه بلفافة أخرى، ينظر له وهو خافض البصر ويقول بتردد:

- ممكن أعاينها. سايق عليك النبى تجبر بخاطرى وما تكسفنى. أخدها فى حضنى مرة واحدة.

يصمت الرجل مفكرا وتغلظ تقاطيعه، ينفث سحابة كثيفة من الدخان فى وجه الليل، يتمخط، يتحرج من أن يخيّب رجاءه، يمدها نحوه بتردد وهو يتلفت؛ يتأكد من خلو الطريق القادم من النجع:

- بس بسرعة لأنها عهدة وحاسب لأن الخزنة معمرة.

يستلمها بين كفيه منوماً مسحوراً، يستشعر مدى نعومتها الآسرة، يرفعها ويخفضها، يقلبها يميناً ويساراً وحدقتاه تنطقان بالسعادة والزهو، ينفخ فى ماسورتها الباردة وكأنه يوقظها من سباتها، يشير بها نحو هدف متخيل، يثبت دبشك البندقية بين نتوء كتفه جيدا، يلصق خده الأيمن بالجانب الأيسر فيستشعر برودتها الشهية، يغمض عينه اليسرى، يركز بعينه اليمنى على فتحة النيشان، بحيث يجعل سن نملة الدبانة فى منتصف فتحة النيشان، يضغط الزناد بحذر، تنطلق تشق قلب السكون الصلد، توقظ الأموات فى مقابرهم. يسحبها منه شيخ الخفر. يتأكد من أن زر الأمان مكانه لم يتحرك. يستأذنه ليمر على الدرك الخالى.

يستسمحه ليبقى معه قليلا. يفسر له سهره بالنوم الذى طار من جفونه،

obeikan.com

ولا يعرج على ذكر الحقيقة التى تؤرقه. يخرج من جيبه كوزين من الذرة. يستمهله قليلاً حتى يجمع بعض الحطب، تطقطق الكيزان، بينما ريقه يتحلب وهو يتطلع إليها بجواره.

كل ليلة يجرجر قدميه فى وحل الليل يفتش عنه، على رءوس الغيطان وخلف الزرائب والأجران، وعند حجرة السلاحليك، وأمام باب البوستة العتيق. يكبس جيبه بعلبة سجائر بلمونت مليئة، وكوزان من الذرة يندسان فى سيالته، لعل وعسى يسمح له بأن يعانقها، ويقبل معدنها الرطب، وربما جاوز كرمه كل الحدود ومنحه فرصة العمر كى يطلق طلقة تشق قلب الليل شقاً.

كانت أمنيته وحلمه الذى لا يتحقق أن يقتنى واحدة. فكر كثيرا وراح يضع القرش فوق القرش، ضيق على عياله فى المعايش، امتهن عملين بل ثلاثة وأربعة، لكن هيهات فالمسافة بينه وبين ثمنها مازالت شاسعة وبعيدة.

أسعد أيامه عندما يحل مولد سيد أحمد الفرغل، يشد الرحال إلى مدينة أبى تيج، يزاحم الصغار والباعة السريحة والنسوة الغائصات فى الملس الأسود، يعبر الأراجوز والسيرك وسرادق المديح، وشوادر الرقاصات، وينحشر أمام الكشك الصاج الصغير، يزاحم الفتية والرجال، يكسر ماسورة البندقية ويرشق حبة الرش فى مؤخرتها، ويعيدها إلى موضعها، يصوب نحو الأسلاك العنكبوتية بما تحويه من كرات بيضاء، يضغط

الزناد بعد صبر، تنفجر البمبة، ويمتلئ أفق المولد بالتصفيق والصراخ الضاحك، يجربها مرة من فوق كتفه، ومرة وهى مقلوبة، ومرة وهو مغمض العينين ومرة من وراء ظهره، وفى كل المرات تنفجر البمبة ويندلع حريق من التصفيق والتشجيع. لا يوجد فحل رضع من بز أمه يجرؤ على مباراته، إلا وكانت الهزيمة هى النتيجة الحتمية، حتى أنه قد لقب ببطل المولد!!

جلس على رأس أحد الحقول يلوك كوزا من الذرة النيئة، أمال عمامته الكالحة، هرش شعره الأكرد، طار القشر من فروته كذرات التبن، قام وأحضر قطعة من خشب سدرة عجوز أغرته بتقسيماتها، راح يشكلها فى أناة ببلطة صغيرة، صنع دبشكا كبيراً، بمدية رفيعة برد لها ماسورة طويلة، راح يزيدها تنعيماً وتدويراً، وللدقة أحضر غراءً وراح يطليها، أعطى الكعب لوناً بنياً محروقاً، وطلى الماسورة بلون رصاصى، وبحزام من السير كان يلفه على وسطه -عندما تصيبه نزلات البرد- علقها من طرفيها، وفوق الزناد ثبت ورقاً مفضضاً بحيث يعطى لمعة المعدن، والبروز الطبيعية بأنحائها بدت وكأنها رءوس مسامير مثبتة بإتقان (عاشق ومعشوق).

تعمد أن يخرج فى الليالى الكحل، يجول بها هائماً، مختالاً، واثقا، يدق الأرض بكعوبه وكأنه جندى فى طابور نظام، وقد فرضت عليه مشية جديدة، بل أحاسيس داخلية مغايرة.

فى كل جولاته يرفض بشدة محاولات ورجوات من يريدون الاقتراب منها ومعاينتها. وزيادة فى الحرص وحتى لا ينكشف أمره؛ كان إذا مرّ على حلقة من الرجال فى خص أو غرزة أو صادفهم مقرفصين فوق مصطبة إحدى الدور من صهج الصيف؛ مرّ سريعاً كالطيف أو الأثير، رافضاً الدعوة التى تقدم إليه، بحجة أنه مستعجل وأمامه أمر هام عليه أن يقضيه، أو ضيوف أغراب لابد وأن يستقبلهم.

ويمضى ونظرات الرجال الحاسدة تثقبه من الخلف، وهمساتهم وهم يتساءلون من أين له ثمنها؟ وكلما زاد تخافتهم وتهامسهم واقتربت الرءوس من الرءوس؛ زاد سروره.

اللصوص وأبناء الليل بدأت تهابه ويتجنبون لقاءه، الكل يعرفون مدى مهارته فى التصويب. المطاريد لا يهاجمون زريبته أو أى من حظائر جيرانه. الأطفال ما عادوا يزفونه فى غدوه ورواحه ويلقونه بنوى البلح، طلقات النيران الداوية فى قلب الليل، حتما هى من بندقيته الجبارة.

فى جلسات السمر بعضهم قال أنها ألمانية الصنع ورثها من جده لأمه، وقد أخفاها عن العيون كل هذه السنوات، وآخرون قالوا أنها إنجليزية من بقايا الحرب العالمية وجدها وهو ينقب فى الصحراء الغربية عند سفره إلى الواحات، ومنهم من أشار إنها إيطالية من نوع برتّا الذى تستخدم للقنص

ومـزودة بتليسكوب للتنشين، سرقها من معسكرات الجيش بالمنطقة الجنوبية بعد أن تسلل بالليل إلى كتائب الجند، وغافل أحد الحراس أثناء نوبتجيته (الشنجى).

عدوى الكلام تسرى بين القرويين سريان النار فى الهشيم، وأبو ستة وبندقيته صارا حديث النجع، وكل من يفكر أو يقوم بالفعل بشراء قطعة سلاح جديدة يلجأ إليه؛ ليأخذ مشورته، ويترك له حرية تثمينها، وتحديد نوعها، وبالطبع لم تكن فى سرعة ومتانة بندقية أبو ستة التى تحمى نجعاً بأكمله من اللصوص وأولاد الليل وقاطعى الطريق!!

بل أن أحد جيرانه قد دق عليه البيت ذات مساء يجر صبيه اليافع، وأخبره أنه مطلوب فى القرعة، وأتى به كى يعلمه ضرب النار ويستفيد من باعه الطويل فى حمل السلاح، وانجعص أبو ستة للخلف، وانكمش وتمدد، وانتفخت أوداجه، وراح يشرح للصبى كيف يتعامل نفسيا ولأول مرة مع السلاح، وكيف أنه يجب أن يجعل سن نمله الدبانة مساويا فى الارتفاع مع رأسىّ فتحة النشان، وما عليه بعد ذلك سوى أن يكتم أنفاسه، ويسمى باسم الله، وتلامس سبابته الزناد برفق دون أن يقوم بضغطه، وأخيرا يصوب فى النصف العلوى للهدف الذى يريد أن يصيبه.

وبالطبع كانت هذه الشروحات نظرية، معللاً غياب الجانب التطبيقى

بخوفه على الصبى، فبنادق المجندين الجدد ليست بالقوة والبطش التى عليها بندقيته!!

وتواصل الخلائق اللغط والكلام، حتى أن بعضهم تمنى لو أن للمجاهدين فى غزة بندقية مثلها، ويتناهى إلى أذنه الكلام مضخماً مبالغاً، مضافا إليه من مخيلة الرواة؛ ما يجعله وبندقيته من الخوارق وعجائب الدنيا الثمانية، فيزداد سروراً وصمتاً مترقباً.

بل أكثر من ذلك، صار يعتنى بها عناية مفرطة، لا يتركها أمام أولاده، ويحذرهم مراراً وتكراراً من خطورة الاقتراب منها، وإلا كان مصيرهم الموت والدمار، فبندقيته هى الأسرع والأكثر فتكاً، وعمرها ما تكذب مثل الأسلحة الأخرى الرديئة الصنع.

واعتاد أن يدفنها فى حفرة بقعر الزريبة، بعد طقوس من اللف بالخرق والتكفين، يزيح عليها أكوام من الروث المختمر، فمن سيفكر أنه يخفيها أسفل تلك القاذورات والروائح النتنة.

ويأتي بين الوقت والآخر ويقوم بإخراجها، ويغلق على نفسه باب حجرته ويخلو بها، يزيتها، ويكبس الشروخ التى تظهر فى الخشب بالغراء.

فى فرح واحد من أفراد العائلة ألح على أبو ستة أن يحملها معه، ويضرب طلقتين تحية لأهل العريس وسط الصوان، هكذا سيرفع من قدره بين

الحضور ويفخر به أبناء عمومته، ووجده أبو ستة مطبقاً فكر ملياً كيف يخرج منه، واحتال عليه وأخبره بأن الطلقات التى لديه قد نفذت وهو يطارد اللصوص ليلا، وعندما عرض عليه شراء بعضها، رده بأنها بندقية أصيلة لا تقبل سوى طلقاتها التى يشتريها من المركز، واكتفى بأن وعده بأن يحملها ويخطر بها وسط المعازيم، وبالطبع من بعيد لبعيد متجنبا الزحام، حتى لا يتعرض الحشد لمكروه ويفسد العرس!!

وفى ليلة ليلاء، راحت الأرجل تدب بين أسوار الزرائب، وارتفعت صرخات النسوة وعويل الأطفال، وارتفعت النداءات بين الأسطح المتجاورة بأن هناك أقداماً غريبة داست النجع، واستنجد به الجميع، فأبو ستة وبندقيته المتطورة هما ملاذهم الأخير.

مثلوا بين يديه يترجونه بأن يخرجها من مكمنها، بضع طلقات ستنقذ الموقف وتردع اللصوص. تسمر مكانه مندهشاً، ارتعشت أطرافه، بردت وتصلبت، اصطكت أسنانه، تسارع وجيب قلبه، تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه حياً، هذا اليوم لم يعمل له ألف حساب، وهو الذى اعتاد أن يخرج من مآزق شتى. ماذا يقول لهم وهو قشتهم الوحيدة والأمل فى نجاتهم؟ أيخرجها من مخبأها أسفل الروث المختمر ويرشدهم إلى الحقيقة التى تاهت عنهم؟ ماذا سيقولون عنه لو عرفوا؟ وماذا سيقول لهم لو تباطأ

فى إنقاذ مواشيهم كما يرغبون؟ أى كذبة تخرجه من هذا المطب؟ تمنى الموت والموت عصياً. تمنى الفرج والفرج بعيدا. ضاقت عليه حلقة الرجال والنساء واستحكمت. منهم من يدعون له وهم يتشبثون بثيابه، ومنهم من يدعون عليه ويتهمونه بالجبن والتخاذل.

فكر كثيرا .. ثم اهتدى أخيرا إلى حل جهنمى.. أمرهم أن يختبئوا أسفل الأسرة والمتاع ويأخذوا ساترا، ويضعوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يصابون بالصمم.

حمل بعض المقذوفات الفارغة التى اعتاد أن ينثرها لصق حائط بيته، صعد إلى سطح الدار وقلبه الراجف يدق كمطرقة، وقد احتقنت الدماء فى وجهه حتى أخذ لوناً بنياً محروقاً، واستدارت عيناه الضيقتان وصارتا كفتحتى بندقية بروحين، واستطالت رقبته كثيراً واستدارت كمسورة مصنوعة بإحكام!!

فرك رءوس أعواد الثقاب، دفع بها إلى تجاويف الفتحات، حشاها جيدا ودكها بمسمار طويل مدبب، وضع المسمار فى جوف المقذوف.. بسمل .. كتم أنفاسه.. أغمض عينه اليسرى .. صاح صيحة مدوية.. ثم ضرب رأس المسمار بالحجر فانطلق الدوى يشق السكون!!!

زفارة سمك

ظلى الصغير تدوسه عربة معدنية صغيرة بثلاث عجلات، ينضد فوقها أبى أسلحته الخاصة؛ المقشة والمقطف والجاروف.

دائما ما يبدأ عمله بالترنم بأغنية جميلة. بينما مقشته تتحرك يمينا ويسارا كراقص ماهر. تسوق أمامها الأوراق والأوساخ. ينشئ أكوام كبيرة وصغيرة، ويعزل التراب الناعم جانبا. ثم يعود إلى العربة ويحضر الجاروف وغلق من الزعف اسود صفاره الفاقع وفاحت رائحته. يجمع الأكوام ويصبها فى قعر العربة، ثم يحمل التراب إلى الجزيرة التى تتوسط الطريق.

عيناى أسيرتان القصر الشامخ، بقبابه البيضاء كقباب ألف ليلة وليلة، وحمام سباحة على هيئة سلسلة. يرعاه صور بنصف خرسانى، ونصف علوى من حديد مشغول كحراب مدببة. السور الحصين يضم حديقة مثمرة وبساط أخضر مجذوذ الأعشاب. فى الشتاء تدحرج حبات البرتقال المعطوبة فوق الطوار، وفى الصيف حبات المانجو والتفاح. كانت جنة ضنينة لا تتحفنى إلا بالمعطوب من الثمار!!

-قصر من هذا يا أبى؟

obeikan.com

-قصر مولانا القاضى.

-ولماذا لا يكون لنا قصرا مثله؟

يبتسم بمرارة، ثم يقول وهو يدفع العربة الصغيرة أمامه متحاشيا نظراتى:

-إن شاء الله يا بنى عندما تكبر.

أمضى فى ذيله كالغبار أحلم بهذا اليوم الذى لا يأتى. أتذوق بمعلقة الخيال تلك الحياة الرغدة التى سأعيشها وسيعيشها أبى عوضا له عن حياة البؤس والشقاء.

أبى اعتاد أن يبدأ عمله من عند القصر الأبيض، مشرف الحى المتجهم يوصيه بهذا ويتوعده لو وجد تقصيرا أو تراخى.

ألمحه وهو يخرج منتفخا كطاووس ببذلة سوداء أنيقة وكرش منزلق فوق البنطال ورائحة عطر تفسح له الطريق. يتبعه كظله خادم نوبى يحمل حقيبة سوداء صغيرة. ثم تتوقف سيارة رمادية كبيرة، خلفها إطار جميل يزيدها مهابة. سمعت أبى يقول ذات مرة أنها من نوع "الجيب الشيروكى". يشخر محرك السيارة التى تحمل رمز النسر على لوحتها المعدنية، يهبط السائق الذى يرتدى بذلة لا تقل أناقة عن بذلة القاضى نفسه. يفتح الباب الخلفى بخشوع وظهر مكسور نصفين.

openkan.com

أبى يبتلع ترنيمته ويهندم من بذلته الزرقاء ويسوى طاقيته المخرمة، وينحنى على مقشته المنتصبة بجواره كبندقية. يرفع يمينه ويتمتم "مع السلامة يا سعادة البيه" بينما قدمه تخبط الأرض استكمالا للتحية العسكرية. ونعومة هواء المكيف يلطم وجهى من فوق الطوار.

يشهد الله أننى لم أر هذا البك المتحفظ يلوح بالسلام لأبى أو يعبأ بوجوده. لكن أبى يواظب على تحيته للباشا. ثم يواصل دفع القمامة على الرصيف وجمعها بعناية.

صندوق القاضى الرابض بزاوية القصر كان يسميه أبى صندوق المجوهرات أو مغارة على بابا! لما به من خيرات كانت مطمع لبعض جامعى القمامة إلى حد الاقتتال عليها. بل أن أبى الطيب كان يهدد ويتوعد من يقترب منه، مؤكدا أنها رزقه وقوت عياله وأن قصر القاضى فى منطقته وتحت نفوذه.

أفتخر بأبى العظيم الذى له نفوذ على القاضى وقصره الكبير!! وأحزن عندما أتذكر كلمته بأن هذا الصندوق المسكون بالهوام والذباب قوت عياله. فهل كان يعنى أبى ما يقوله بأننا سنأكل هذه الزبالة القبيحة؟

فى مرة عثر أبى على كوتشى من النوع النفيس. ومرة أخرى وجد لاختى الرضيعة فستان وببرونة وعلبة لبن، ودواء للربو لأمى المريضة، وأخيرا عثر على تى شيرت علي هيئة علم مصر.

obeikan.com

اليوم أشعر بنمل الجوع يقرض معدتى. تعينه رائحة زفارة السمك التى تفوح من القصر الأبيض. يهمس أبى:

-يبدو أن جناب القاضى سيأكل اليوم سمكا.

-لماذا لا نعيش فى قصر مثله ونأكل طعاما مثل طعامه؟

يضحك أبى ويقول ببداهة:

-لأنه قاض.

-وأنت يا أبى لماذا لا تعمل قاضيا مثله؟

يتركنى وقد عيل صبره من كثرة أسئلتى. يتلفت حوله كاللص المتمرس ويخفت من صوت غنائه، ويضم الأكياس السوداء بين فخذيه كمن يضم رضيعه، ثم يفتحها بعناية وكأنها ستنفجر فى وجهه.

يفرز الزجاج والعظم والبلاستيك. ينتخب منها بعض الأشياء المفيدة التى يمكن أن يبيعها فى سوق الخردة.

الكيس الكبير تفوح منه رائحة تخمر وعفونة. رؤوس الأسماك الكبيرة الغالية تستجلب مواء القطط وأنين صغارها. أبى يدس فى جرابه الأصفر شيئا، ويمنينى بمفاجأة مذهلة.

فى المساء فاحت رائحة الزفارة فى كوخنا الصغير.

obeikan.com

وجاءت أمى تتلفح بالسواد والتجاعيد المبكرة، تحمل واثقة طاجن من الأرز المعمر، تتناثر به جزر صغيرة من قطع السمك الغارق فى التقلية. لقد بر أبى بوعده واشترى لنا سمكا مثل سمك القاضى.

غسلت يدى وشمرت ساعدى وسميت باسم الله ثم كسرت لقيمة صغيرة ودسستها فى الطاجن الساخن. ردعتنى حوافه الملتهبة، نفخت أناملى المتعجلة وهززتها فى حركات بندولية أطرد بها الوجع والحرارة. فجأة ارتدت يدى فزعة مهمومة. طالعت حقيقة السمك الطازج الذى اشتراه أبى من السوق. إنها نفس رؤوس السمك الغالية المختمرة فى الأكياس. شعرت بغصة تنحشر فى حلقى فلم آكل. داهمنى مغص وتقيأت ماء أصفر من معدتى الفارغة. زعقت فى وجه أمى وعصيت لأبى طلبا وكانت المرة الأولى!

والآن وبعد أن كبرت وتخرجت من الجامعة وفشلت فى أن أجد عملا. أدفع عربية أبى الذى أنهكته الشيخوخة وألزمته الفراش كخرقة. أعبر بجوار القصر الأبيض بجلبابى الأزرق وطاقية أبى الكالحة. أجمع القمامة بجد ونشاط. أشاهد سيارته ذات الدفع الرباعية وهى تحمله كقارورة عطر نفيس، وسائقه الشيك مازال منحنيا انحناءته المقدسة، وسيارة أخرى صغيرة لا تقل فخامة. يتهدج محركها وينفتح الباب سريعا، وحذاء الابن

اللامع يسبقه إلى الدخول بعظمة، يحمل نفس الحقيبة ونفس البذلة الأنيقة والابتسامة المتحفظة.

أنحنى على مقشتى بنفس الآلية. أتحف الأب والابن بنفس التحية المتحمسة والغمغمة التى تضيع أدراج الرياح. فلا أنتظر ردا لسلامى المتطفل.

أهرول إلى صندوق جواهرهم أطرد القطط الضالة والكلاب، وأقعى أفض بكارة الأكياس السوداء وأنا أتلفت حولى خشية. أقلب فيها بحماس وتأن، أطوح بغير النافع منها كعلب الفياجرا وأكياس الواقى الذكرى وأسكب ما تبقى فى قعر زجاجات الويسكى الاسكتلندى. بينما الرائحة الزاعقة التى تتهادى من قباب القصر؛ تجعلنى أطمأن على عشائى، وأقدر فرحا الكنز الذى سأجده الليلة فى تلك الأكياس المنبعجة!

obeikan.com

الطلوقة

صوت خواره المتماوج والمتسلق مع الريح خصاص النافذة يعضده الليلة، يكرع خلطة الأعشاب المغلية، يستحلب حبته الزرقاء، يتذكر أنه قد دفع فيها ثمن خمس نطات كاملة، لا يكتفى بذلك وينتشل من قعر السيالة علبة صغيرة كلفته أيضا نطة ونصف، يدير غطاءها الصدئ بصعوبة، تصفعه رائحتها النفاذة، يجرح لحسة صغيرة من أعلاها، يرفع جلبابه يدلك عضوه بعناية.

على طرف السرير الموشى بزهور حمراء تنتظره، حياء متكلف وقميص ستان أحمر يلتصق باللحم المشع كلمبة، وعلكة تجعلها تتغنج قبل البدء، الضوء الذى تبخه السهارة أيضا نارى ومشجع.

تحاصره بتلك الألوان المبهجة، تتحفظ فى ملامحها المبتهجة، تبتئس قليلا، تخشى أن يخفق مثل المرات السابقة، اليوم كال لها الوعود البراقة وأسرف مثل سحابة شتوية، ملأ البحر طحينة وفرد كل قلوعه ودعاها أن تبحر معه، صال وجال واقتحمها بكلمات فاجرة، حتى تندى سروالها بماء الأنثى، دائما لا تظفر منه إلا كلاما ووعودا مبتورة.

obeikan.com

-ربنا يستر تلك النوبة.

قالتها فى سرها ورائحة مياه الثور تقتحم عطن الغرفة، وقالها مرتعشا يشد من أزر فحولته الخائرة. تذكر كلمات صديقه الساخر وهو يطلق ضحكات هازئة شدت فضول السابلة، سيبدأ أولا بمداعبة تلك الربوات الرجراجة، قبلة طويلة فوق جمار هذا العمود العاجى، ثم يفرك حلمتى الصدر حتى تنتصبا كفوهتى بندقية تمهد للتصويب، لن يوغل حربته بسرعة ثم يعود ويندم، للحب أصول عليه أن يتبعها ويتدرج فيها.

دس الحجاب أسفل وسادتها البمبى، جرده الشيخ ذو المسبحة والقلم الكوبية والأوراق الصفراء من أجر ثلاث نطات، ينفض جلبابه وكأنه يذيل بقايا سحر عالق، رتل نفس الورد القديم، رفع طرفه إلى فمه وانكفأ عليها يقبلها بحرارة ثور هائج، إلتقم الفم الدم، دغدغ أنوثتها العطشى، أذاقها من جنة فيه قبلات حارة. تأوهت وانقلبت على الجنب الأيسر، ونظرت إليه بعتاب المستزيد. ترشده أن هذا أول الغيث وأن قطرات ضئيلة لا تروى شقوق أراضيها الخصبة. تحامى نظراتها مستاءً. مع أن الجو عاصف والسماء غائمة لكنها لا تمطر. قال بصوت متهدج يستمهلها:

-اصبرى على رزقك. الثقل قدام.

توقف يسألها بحذق عن الدجاجات العتقية وعدد البيضات والديك الرومى

والبطة الشرشر، تأكد أنها أحكمت غلق العشة، استفهم عن صحة أمه المريضة بالربو الشعبى وهل زارتها تلك النهارية، وهل كنست ورشت لها الدار وطبخت ما تشتهيه من لحم الضأن المسلوق، سألها عن أشياء كثيرة كان من قبل يتركها ولا يأبه بها، وهى صامتة لا تحرى جوابا. تتزود بابتسامة ماكرة حتى يتهيأ، أسلمته عجينتها اللدنة، انبرى يلتها ويعجنها فى تجويف السرير الهزاز، وفى النهاية لا يقرص خبزا.

شعر بجبل جاثم على صدره، لعن العطار الغشاش ابن الهرمة، ولعن الاجزجى ذا الابتسامة الذئبية الذى باعه الحبة الفاسدة، حتى الزنجى الذى نقل تجارته فوق متن الرصيف، وباعه مرهم قرن الخرتيت، أيضا غشه، الكل مزيف حتى المرخى بذل بين حجارة فخذه.

ماذا يجدى مع النيران المشتعلة غير النيران. فعل أخرق، يلقى حطبا فوق اللهب فيزداد سعيرا. إنه يسمع طقطقاتها وهى غائصة فى لحم المرتبة القطنية والنيران تأكلها. ماذا يفعل مع تلك القطة الشبقة؟

ينتشله من أعماق اليأس صوت خوار طازج يستعذبه الليلة. يوافيه من الكوة صوت آخر يلهج باسمه. اعتدل سريعا وسوى من نفسه. استأذنها لأن فى الأمر ضرورة. لقمة عيش تناديه وعليه أن يلبى. حدثها عن تلك الأمسية العامرة بالسحر وباللذة، عدد ما كان سيفعله الليلة، كان سيقطعها تقطيع

ويفتها فى طبق مغمور بعسل مصفى ويأكلها بغير رفق وتؤدة، حدثها عن سوء الحظ المتربص بذكورته الجبارة. لكنها قطعت عليه كل حبال العذر. قالت لا تتحرز كالعادة بخجل الأنثى:

-وماله الليل طويلة حباله.

هبط السلم يتعثر فى قلقه، فى قدمه عرج قديم، ينظر خلفه وأنفاسه تتهدج وكأنه لص مطارد، يبصق على ظل تلك الأنثى التى لا تقنع. كان يريدها أن تغفل عن تلك الليلة الليلاء، وتسلم رأسها لوسادتها تداعبها الأحلام الوردية، شىء أفضل من لاشيء، امرأة عاهرة كتنور جبار لا يشبع، وهو بين المرض ووصفات العطار قليل الحيلة.. ملعون أبوها الأكتع وملعون أبو كل امرأة نقلت عقلها بين الفخذين.

جاره يقبض على مقود جاموسته التى تحاول أن تتملص، فى ضوء مصباح الشارع المتناعس يلمح السائل الشفاف اللزج وهو يخر من محياها، لاحظ حجم الفتحة وتورمها، لعن فى سره كل الأنثى، أولاد القحبة ينغصن عليه حياته. عاد واستغفر ربه. رزقه ورزق عياله من سائل تلك المجترة.

قال جاره معتذرا:

-اعذرنى لأن الوقت غير مناسب. البقرة حرارتها مرتفعة ولم تصدع الزاد

وتقفز فوق الأبقار.

-البقرة شايعة ملعون أبوها الأكتع.

زلقه الجار دون أن يفهم مغزى كلامه، وما دخل الأكتع فى بقرته الشايعة. دس فى يده ورقة بعشرة جنيهات وأقسم أنه لا يملك غيرها.

قال له ممتنا:

-ولا يهمك حتى ولو لم يكن معك جنيه واحد. ستأخذ حقها وعليه واحد زيادة.

يطلق ضحكات غجرية، يسحب مقود بقرته ويمضى خلفه مندهشا، جرت العادة أن يفاصل ويغالى ويتكلم عن ارتفاع سعر العشب الأخضر، والعليق الأصفر وجوال الكسبة.

أخرج مفتاحا مربوطا بدبارة وعالج ثقب القفل البارد، الثقب خبيث فاجر، أداره مرات عدة دون جدوى، كان عليه فى النهاية أن يبصق فيه لعابه فيلين!

فتح الباب فتعالى خواره ملتهبا، سمع صوت رفسه وقفزاته، يميل برأس مهتاجة ينطح المزود الصفيح ويبعثر حفنات الردة، وجل الجار وتقهقر خشية، خارت بقرته بشدة وجاوبها بخوار أعظم. شعر أنهما يتفاهمان. فهو اللقاء الأول بينهما.

-سأنتظرك بالخارج. أعلم أنك ماهر ولا خوف عليك.

لكأنه يسخر منه أو يحصى عليه هزائمه، سحب البقرة إلى ركن مظلم. اقترب من ثوره وراح يمسد رأسه. تذكر أول مرة رآه فى سوق القرية. كان كومة عظم وجلد مشدود كطبلة. أقدامه الواهنة تتثنى أسفل منه، وبخه السمسار وحذره من شرائه فهو مخلوق للموت، حتى القصاب أنفته سكينه. تمت البيعة فى غمضة عين وتوارى البائع فى شحم السوق المتكأكأ ظنا منه أنه الرابح وحده. عاد يجره خلفه منكسرا يموء كقطة. كل من يقابله يلومه على هذا الفعل الأخرق. قفة عظم وقفة جلد يهلك فيها نقوده هذا الأهوج. أطعمه وسقاه مغلى شعير دافئ. من خيوط الصبح الفضية يجره نحو الحقل. يغمره بالشمس الدافئة، فى الترعة الضحلة يحممه كطفل. تجاهل طبيب الوحدة البيطرية تماما. طبيبه هو ورفيقه وكل ذويه. البدن يصح ويتكتل شحمه مع الأيام وتسن قرونه. كسب رهان أضخم ثور فى القرية. يركب أجدع بقرة ويرشق حربته المسنونة وسط تهليل الصبية، وهى تخور أسفل منه وتجتر.

فتح أمامه أبواب الرزق المغلقة، بقضيبه وطد مركزه بين كبار القوم، قصده الفلاحون بمواشيهم. الثور طلوقة وقادر على تخصيب كل الأبقار الشايعة. بدأ التسعيرة بخمس، رفعها مع علو الأسعار إلى عشر، ثم خمسة عشر جنيها، ثم استقرت عند العشرين. يتذكر أن العمدة وهو يمتدح

فحولته دفع فى عشر جاموسته ورقة بخمسين. كان قضيبه مفتاح الرزق عليه وجلاب السعد.

تركه يختلى بها فى زاوية ضيقة. هو يعرف طريقه جيدا. خرج وجلس مع جاره وأشعل راكية النار،ألقمها أقراص الجلة وعظام قناديل الذرة. دفن فى حجرة التعميرة قطعة حشيش صغيرة. تبادل معه شد الأنفاس. بين الفينة والأخرى يوافيه خوار الثور الذى لا يهدأ. ركلات. رفسات وصوت مواء ممطوط.

يضحك جاره:

-ثورك فحل حتى بذرته عفية.

يضحك ثم يجيب:

-طالع لصاحبه.

يضحك جاره بينما يشرد هو بذهنه الممطر حسرة. يمتطى الطريق الوعر. يخطر بجوار الترعة العذبة مزهوا بعوده الخيزران. ينحشر فى جلباب أبيض مزهر، ويلقى على صدره شالا شاهيا فتكتمل رجولته الفواحة. النسوة تطاردنه بغنج ضحكاتهن وتأوهاتهن على الطرقات. وهو كعجل الطلوقة لا يحفل بالزبد المتدفق منهن. كانت أياما عامرة بالقوة والحكايات وآهات

obeikan.com

النشوة.

نصحه طبيب الغبرة فى أخر زيارة له أن يحفظ ماءه، الماء نور وضياء، وصدره فى هشاشة قشر البيض من مضار التبغ، أخبره مواسيا أن السن له أحكام، ما كان عليه أن يتسلق امرأة تصغره بعشرين ربيعا. قال له إمام المسجد الماء ينقطع يا ولدى والنار تشتعل.

شدته الرفاسات والركلات التى تتفصد من جدران الحوش الطينى. لمح النيران فوق حجر التعميرة خامدة يعلوها رماد أسود، تتفتت ذراته وتذروها ريح هبت فجأة. تندى عرقا وراح يلعن تلك الأضواء التى مازلت مشتعلة فى غرفة نومه. طلب منه أن يمكث بعض الوقت، ترجاه، الثور قوى بمقدوره أن يفعلها أكثر من مرة، فلماذا العجلة. هذا لمصلحته ولإنجاح مهمته الذى خاض فى وحل الليل من أجلها. حذره أن ينسى نصيبه من لبن السرسوب بعد الوضع.

حكى له عن صولاته وجولاته فى الغرف المغلقة. فاض فى وصفه وهو يتكلم عن الأوضاع المثلى، هذا فرنساوى مستورد وهذا صعيدى جلف، وهذا من بلاد الواق الواق. أغرقه بكم هائل من المعلومات عن النوع الغناج والأخر الجدير بأن يتباس ومن هو أهل لضرب المداس. شرح له كل الوصفات الممكنة، كلمه عن جوز الطيب وما يفعله طاجن مخاصى العجل، حذره من

المراهم والحباية الزرقاء، عدد له مزايا الطبيعى..

كشف أمامه كل المستور. عدد له أسماء النسوة اللائى تبعنه إلى داره، والأخريات اللاتى استقبلنه على فراش الأزواج المخدوعين، فى ردف فلانة وحمة، وفى نهد فلانة شامة، وفى فخذ تلك القحبة بنت القحبة ندبة جراء جراحة.. والثور فى الداخل ينعر.. يرفس.. يوقظ حتى الأموات. ورفيق الليل بإذن عريضة يتسمع، يهطل منه لعابه ويسيل المنى من أفخاذه، نيران الراكية تتقلص، وحكاياته الممتدة تهدهد ألسنة اللهب، فتنقطع وتنعس، والليل الموغل يعانده بجبروته، ونقيق ذكور الضفدع تسخر من أكاذيبه، ووجه الصبح البض مستور بنقاب أسود. بين الفينة والأخرى يرفع رأسه المثقل بالشيب، يرمق بعيون منطفئة وقلب بارد تلك النافذة المشتعلة وهجا، ينتظر بيأس أن تنطفئ السهارة وتتلاشى الأنوار الحمراء الفاجرة.

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com